

رواية

الروائي المستتر

عبد الله الجعفاني

رواية

الروائي المتشرد

عبدالله الجعافري

الكتاب

الروائي المتشرد

الكاتب

عبدالله الجكاني

تصميم الغلاف

أنور الوردميشي

التنسيق الداخلي

عبدالله الجكاني

الطبعة

الأولى، 2019

الترقيم الكولي

ISBN: 978-9920-38-167-3

رقم الإيداع

2019M03621

حقوق النشر والطبع محفوظة ©

إهداء

إلى أمي طبعاً!..

استهلا

ذات ليلة ودون سابق إنذار خطرت لي فكرة!.. فكرة
مجنونة كمعظم الأفكار التي تعتريني من حين لآخر، أن
أكتب رواية عن عالم المجانين والمتشردين!.. أن أتقمص
الدور وأعيش حياة الجنون والتشرد حقيقة، لا أن أكتب
عنهم من وراء حجاب مستلهما من خيالي وفي يدي
كوب من القهوة كما يفعل أغلب الكتاب.. ولكي أحقق
ذلك؛ كان علي - أولاً - أن أتخلص من شيئين رئيسيين قد
يفسدان علي مخططي.. وأقصد بذلك، زوجتي التي ما
عدت أطيقها، وتجارتي التي لطالما كرهتها..

التجارة

الثلاثاء 24 يناير 2051

إفران/ المغرب

لقد كان هذا اليوم علامة فارقة في مسلسل حياتي، وتاريخا لن أنساه إلى يوم مماتي.. يكفي أنه اليوم الذي قررت فيه أن أنفض عن كاهلي كل شيء تورطت به ضدا عن رغبتي، وأن أتفرغ بالمقابل لأكثر شيء أحبه ويحقق متعتي.. ألا وهو الكتابة..

مازلتُ أذكر كيف تطورت علاقتي بهذا الابتلاء الحميد الذي ينشأ عن تفاعل مخيلتي مع الورق والأقلام، مستوحيا ما يروق لي من حقائق الواقع تارة وتارة أخرى من عالم الأحلام.. خصوصا عندما كانت أُمي اللطيفة تحبسنني في غرفتي أملا في نهبي عن شغبي، حيث لم تكن - المسكينة - تدري أن مخيلتي الشاسعة أوسع من أن تضيق بها جدران غرفتي؛ لا سيما إن كانت بحوزتي أوراق كافية تمكّني من صنع عوالم جديدة والسباحة في أرجائها لوقت يفوق فترة حجري بكثير.. لكن ذلك الحجز الظريف لا يقارن أبدا بالحجز الذي أشعر به كلما تناهى إلى أسماعي شخير زوجتي من غرفة النوم..

كنتُ في مكتبي أراقب الثلوج من نافذتي وهي تكسو حي الرياض حين قطع شخير زوجتي "مريم" حبل أفكاري مرة أخرى.. ابتعدتُ عن زجاج النافذة وقد تركتُ عليه بواخا خلفه تأففي، ودلفتُ إلى الغرفة حيث

تنام.. كنت أنظر إليها مشفقا على حالي.. كيف تزوجت يا ترى هذه التي تشبه دبا في سباته الشتوي؟! كيف تحولت من فتاة رشيقة إلى كتلة من الدهون لا تتحرك من ارتداء بناطيلي وقمصاني في كل وقت وحين؟ كيف تغيرت من امرأة تهتم بأدق تفاصيل تفاصيلها إلى دابة يُسمع شخيرها في أقاصي الفلپين.. لقد صدق الذين قالوا إن متعة الزواج في أشهره الأولى وأما ما بعده مودة ورحمة، بيد أن شخير مريم وضراطها لا يرحمان ولا يُبقيان ألفةً أو مودة.. هذا حال مثيلاتها اللواتي يعتبرن الزواج أقصى أمانيهن، وهكذا ينتهي المطاف بأمثالي الذين يعيشون حياتهم وفق ما تمليه عليهم أعراف القطيع.. يرددون على مسامعنا دوماً "اعمل للمستقبل.. اعمل للمستقبل.. اعمل للمستقبل".. ها نحن عملنا! وماذا بعد؟! نجتهد في دراستنا دون أن نمرح، ونجد في أعمالنا دون أن نمزح، ثم نتزوج لكي نكدح.. قبل أن نأتي بأطفال ننشئهم على عقلية القطيع ونعلمهم تعاليم الكادحين.. من حسن حظي أننا لم ننجب، وإلا ما كان بإمكانني أن أنفصل عن زوجتي أبد الأبدين..

ابتعدت عن مرقدتها ممتعضا وعدت إلى النافذة باحثا عما يمكنني فعله بحياتي، ثم انشغلت بالتفكير بمن هم أسوء حالا من حالي لعلني أجد العزاء والسلوان.. مكثت لبرهة على تلك الحال، قبل أن ألمح على الرصيف كهلا شريدا رث الثياب يرقص مرحا كالبهلوان.. دققت النظر في هيأته مستلظفا، ثم رفع رأسه واقترب وأشار

إلي مستعطفا؛ ففتحت النافذة على الفور، ورمىْتُ له ما
تبقى من فكة كانت بجيب بنطالي.. فابتسم في وجهي
ممتنا وتابع الخطى إلى أن تلاشى شبحه عبر الضباب..
عندئذ، وفي تلك اللحظة بالذات، خطرت لي الفكرة التي
قلبت حياتي رأسا على عقب..

الخطبة

كانت الساعة تشير إلى الخامسة صباحا، وكنت ما أزال في حجرة مكتبي منهمكا بالفكرة التي سلبتني عقلي وتفكيرى.. لم أنم، ولم أكن قادرا على إغماض جفني حتى.. لقد كانت فكرة التنكر كمتشرد مجنون وكتابة رواية عن عالمه أشبه بماسة تأبى أن تفقد بريقها، وبقدر ما كانت فكرةً مجنونة بالنسبة لي وقتها، كان هناك صوت في دواخلي يحذرني من التراجع عنها، مُصِرّاً على كونها بطاقة الخلاص التي ستعيد الأمور إلى النصاب الذي يجب أن تكون عليه.. ذلك أن تحقيقها سيحقق ذاتي، وسيخرجني من كآبة الملل البئيس الذي يعكر حياتي..

وبناء على ذلك، كان من البديهي أن أدرك أن استمرار ارتباطي بزوجتي وانشغالي بتجارتي سيحولان دون أن أحقق من هذا الهدف شيئا، وبأنني ملزم بالاختيار بين تجربة مجنونة أحب القيام بها، وبين تجربة جادة لا أستمتع بها.. أذكر أنني ترددت لساعتين مفكرا بما قد يترتب على خطوتي هذه من عواقب، وبما قد ألقاه في سبيل تحقيقها من مصاعب.. لكنني وبمجرد أن عزمْتُ؛ استغرقت دقيقتين فقط لأتمكن من وضع الخطة التي ستمهد إلى التخلص من تجارتي ومن زوجتي دفعة واحدة..

غادرت الشقة تحت تهافل الثلوج مرتديا معطف أبي الذي يعود تاريخ صنعه إلى تسعينيات القرن الماضي، متوجها إلى قصر "رشدي بن ميمون".. ذلك العجوز الذي يتربع على عرش أغنى أغنياء المدينة.. لطالما ردد الناس على مسامعي أن الملياردير "بن ميمون" شخص لئيم، جشع، يحب التملك.. وعلى الرغم من ذلك لم أكن منزعجا من لؤمه بقدرما كنت مهتما بجشعه، سيما وأن هذه الصفة الأخيرة هي التي قد تدفعه إلى شراء متجري بالسعر الذي أطلبه.. لكن ما أزعجني طوال مسافة المسير هو نظرات بعض المارة إلى معطفي القديم، كانوا يتهامسون تارة، وأحيانا أخرى يتلامزون.. صراحة ما كنت لألومهم على ذلك، ففي هذا الزمن الذي لا يستغني فيه أحد عن ملابس النانوتكنولوجي التي تُنظّف من تلقاء نفسها؛ يُعدّ ارتداء معطفٍ كمعطفي ضربا من ضروب التخلف، بيد أنني أعشق هذا التخلف لأسباب أجهلها.. يكفيني تخلفا أنني الشخص الوحيد بالمدينة الذي لا يستقل سيارات الأجرة الطائرة، الأدهى من ذلك أنني الوحيد الذي لا يضع سوارا إلكترونيا حول معصمه في مدينة ترتبط فيها كل الأجهزة ببعضها عبر "أنترنت الأشياء".. لا أنكر أنها تقنية تسهل الحياة؛ فبفضلها أمكّن للسيارات التواصل مع حاسوب متخصص في ورشة الصيانة وإجراء فحص تقني دون الحاجة لزيارة الورشة.. واستطاعت الثلاجات التعرف على محتوياتها ومراسلة مراكز التسوق لاقتناء

السلع عبر الأنترنت، قبل أن تقوم العربات الذكية بإيصالها إلى البيوت دون أي تدخل بشري.. كما أمكن للتلفاز المتصل بسوارك اختيار البرامج التي تناسب رغباتك وحالاتك النفسية، وبثها دون أن تأمره بذلك.. وبدون استشارتك أيضا، يُراسل سوارك نظام التكييف لضبط الحرارة بما يتماشى مع حالتك الصحية.. لكن، وبالرغم من هذه المزايا كلها، رفضتُ ربط معلمي بسوار.. لأنني بوضعه سأفقد معنى إنسانيتي، وسأصبح بدوري مجرد جهاز موصول بالأنترنت كبقية الأجهزة..

وفيما كان ضميري منهمكا في محاولة إقناعي بالخروج من قوقعتي ومواكبة التقدم، وصل بي المسير إلى حي "الأطلس" أرقى أحياء المدينة، وبدأتُ باختراق أفواج السياح على طول الشارع المخصص للمشاة وأنا أفرس في تقاسيم وجوههم، محاولا عمل تطبيق ميداني لما تعلمته من كتب الفراسة التي تعودت على قراءتها منذ الصغر.. والحق أنني كنت أحاول إقناعي أن فراستي قادرة على التفوق على عدسات "أوريزون" المزودة بتقنية الواقع المعزز، إلا أنني لم أفجح.. فعيناي غير مزودتين بحاسوب يستطيع قراءة إيماءات الوجوه كما هو الشأن بالنسبة لهذه العدسات.. أضف إلى ذلك، أن هذه العدسات المتصلة بالأنترنت قادرة على تزويد واضعها بأجهزة ملاحية وتطبيق مترجم لجميع اللغات، الشيء الذي يفوق بكثير قدرات عيناى المسكينتين.. فهي لا تتقن سوى الإبصار، هذا إن لم تعتريني حالات

الشرود التي تضعف تركيزي وتضيع علي فرصة الانتباه لأشياء كثيرة.. ومع أنني كنت مقرا بتفوق عدسات "أوريزون" إلا أنني كنت مقتنعا تمام الاقتناع بأنني لن أستعملها أبدا.. فبالنسبة لي، فكرة ربط عيني بجهاز يعطيني باستمرار معلومات عن كل ما يحيط بي، أمر مزعج للغاية..

المرور من هذا الشارع الطويل المكتظ، سرق من وقتي الكثير.. لم يكن ذلك بسبب الازدحام فقط، بل لأنني توقفت مرارا أمام واجهات المتاجر التي تعرض أحدث السلع.. كما أنني كنت مجبور الانبهار بذوق الساكنة الفني الذي تعدى تزيين واجهات المنازل إلى تزيين الثلوج باستعمال ذواكر هولوغرافية صبغت أضواؤها الليزرية بياض الثلوج بألوان زاهية في منتهى الروعة.. روعة شغلتنني، وحالت دون أن أنتبه إلى بوابة القصر التي تجاوزتها بخطوات عديدة.. قبل أن أعود إليها وأقف أمامها متأملا فسيفساء جنباتها الأندلسية العريقة.. تراجعت خطوتين إلى الوراء حتى أميز مكان الجرس بين النقوش والزخارف، غير أنني فوجئت بصرير الباب وهو يُفتَح ببطء كاشفا عن حديقة ممتدة الأطراف.. يخترقها ممر رخامي لماع قد أحاطت به أشجار الأرز الباسقة..

وجمت في مكاني للحظة.. قبل أن يخاطبني صوت رشدي ذي اللكنة الفاسية الأصيلة من "الآنترفون" قائلا:

- مرحبا يا "ليث" .. تفضل! ..

ارتفع حاجباي دهشةً من معرفتي باسمي، بالقدر الذي أدهشتني مبادرته إلى مخاطبتي عوضاً عن أحد من خدمه.. ترددت قليلاً وأنا أتأمل لون قصره الأرجواني الذي يوحى بالثراء الشديد، ثم دلفت عبر الممر دون أن تزول معالم الدهشة عن تقاسيم وجهي، وتابعتُ الخطى إلى أن وصلت إلى المدخل الرئيسي؛ ليزداد اندهاشي من تصميم بهوه الزجاجي البديع الألوان.. كنت أماً ناظري تارة من جمال النباتات التي تسلقت أعمدته البلورية، ومن الأسماك التي تسبح في جوفها تارة أخرى، دون أن يتوقف عقلي عن التساؤل حول الطريقة التي عرف بها العجوز اسمي.. بيد أن صوته الجهوري أوقف سيل التساؤلات عندما خاطبني مرة أخرى:

- اسلك الرواق اليميني إلى آخر حجرة! .. إنني أنتظرك في مكتبي..

انتهى بي الممر الزجاجي إلى باب المكتب الذي لا يقل تصميمه فخامة عن بقية الرواق .. وبمجرد أن خطوت داخله التقط أنفي رائحة لخليط من الفواكه الاستوائية، وشعرت بأن حرارة المكتب أدفأ مما كانت عليه في بقية القصر.. هذا دون ذكر رفوف الكتب التي تزين أرجاءه، وجدرانه الزجاجية التي كانت تعرض مشاهداً لغابة كثيفة الأشجار، والمقاطع الصوتية

لعصافير أطربت مسامعي وجعلتني أشعر أنني في غابة
وسط أدغال الأمازون، لا في قصر من قصور إفران..

أذكر أنني لم أنتظر كثيرا حتى سمعت صوتا يأتي
من الأعلى:

- أنا هنا يا ليث..

رفعت بصري.. فإذا به رشدي فوق أريكة معلقة في
الهواء، يلتحف بطانية وفي يده كتاب..

ثم وضع الكتاب من يده، وأردف قائلا:

- اعذرني سيد ليث على هذا الاستقبال الغريب..

لقد كنت أقرأ رواية "تائه في الأمازون"، ولكي
أبحر في عالمها قمت ببرمجة حاسوب الجناح
على هذا النمط الاستوائي.. انتظر، سأعيد
تعديله..

نقر على سواره ثم عادت الجدران إلى لونها الطبيعي
الشفاف، وسكنت أصوات العصافير، قبل أن ينزل
بكرسيه على الأرض وهو يقول:

- إنني أعشق أرائك الجاذبية المضادة؛ فهي
تمنحني متعة أكبر أثناء القراءة، ألا توافقني
الرأي؟ أرجوك لا تقل إنها ترهات عجوز في
التسعين من عمره!..

فأجبتته مبتسما من قوله:

- صراحة لا أملك أن أوافقك الرأي من عدمه!.. لم
يسبق لي أن جربت القراءة على واحدة منها!..

عندئذ مد يده وصافحني ضاحكا:

- لا شك أنك حائر، لكنك لن تكون بقدر حيرتي..
تفضل بالجلوس..

جلست إلى مكتبه المصقول من خشب العرعار وقد
أصابت رائحته شيئا من وجداني، ثم انبريت إلى
الحديث عن أكثر سؤاليين شغلا بالي لحظتها:
- كيف عرفت اسمي؟!.. وأين العاملون في
قصرك؟! لم أصادف منهم أحدا في طريقي إليك!

فوضع الكتاب عن يمينه، ومسح على صلته اللامعة
وقد ضاقت عيناه كثعلب ماكر، ثم أبان عن نواجده
مبتسما:

- إن الخدم في إجازة مدفوعة.. فعلت ذلك لكي
أخلو بنفسني قليلا..

قبل أن يتكى على مقعده الجلدي الفاخر ويضيف
مخبرا:

- أما عن اسمك فلقد ظهر على شاشة حاسوبي
مرفوقا ببياناتك الشخصية فور أن التقطت
مراصد القصر صورة وجهك عند البوابة.. لكن ما
حيرني فعلا هو عدم إدراج عنوان الآيبي
خاصتك ضمن البيانات.. أيعقل أنك لست
منخرطا في بروتوكول الأنترنت؟!

فابتسمت.. ثم كشفت عن معصمي لافتا انتباهه:

- لا أضع سوارا كما ترى، ولا أحبذ أن أكون كبقية
القطيع أحمل نقطة اتصال تكشف كل الأجهزة
بياناتها.. لكن وبالرغم من ذلك استطعت أن
تكشف اسمي!

انفجر العجوز ضاحكا.. ثم نقر نقرتين على سواره؛
للتجلى بياناتي على شاشة الجدار المقابل ويشرع في
قراءتها قائلا:

- تقول البيانات أنك تُدعى ليث بنعمران، وتبلغ
من العمر ثلاثة وثلاثين سنة.. متزوج وتمتهن
تجارة الأثاث.. أما عن مصدر البيانات فهو
حساب زوجتك "مريم" ..

لعنت زوجتي في نفسي.. وأردف رشدي دون أن
يتخلى عن ضحكاته:

- لا يلزمي انخراطك في بروتوكول الأنترنت لكي
أحصل على بياناتك، يكفي أن ينخرط أحد
أقربائك.. ولا يخفى عليك أن نظام الأمن القومي
قد بدأ فعلا في تفعيل سياسة "البيت
الزجاجي" .. إنهم يؤمنون أن انكشاف بيانات
الجميع أمام الجميع، سيحول المغاربة إلى أسرة
كبيرة وسيعزز أمن البلد السياسي والاجتماعي
بشكل تستحيل زعزعته مستقبلا..

أصغيت إلى كلامه متمعنا.. ثم عقت عليه:

- لا تنس أننا نعيش في بلد ينتهج نظاما فديرياليا
يسمح لكل ولاية باعتماد تشريعاتها الخاصة
التي تتلاءم مع ثقافة قاطنيها وخصوصياتهم..
وهناك ولايات لا يود سكانها تطبيق سياسة
البيت الزجاجي..

هز رشدي رأسه موافقا.. ثم قال:

- دعنا من هذا الحديث الآن، يجب أن أحضر لنا
شيئا نشربه لكي نباشر الحديث عن السبب الذي
جاء بك إلي.. ماذا تشرب يا ليث؟

أجبتَه على الفور:

- لا داعي لذلك سيدي..

ثم استرسلتُ ضاحكا مما أنوي القيام به:

- لقد قصدتك لأعرض عليك شراء متجري.. إنني
أنوي الرحيل عن المدينة..

عقد حاجبيه وقد نالت من وجهه معالم الاستغراب..

ثم ضم شفتيه رافعا حاجبيه يسألني:

- وهل هناك من يغادر مدينة جميلة كهذه؟! .. أي
وجهة هذه التي فضلتها علينا؟!

أجبتَه بعد أن ضحكت من استغرابه:

- سأعود إلى ولاية البيضاء.. فهناك وُلدت،
وهناك يقطن والداي..

وكما توقعت صاح مستغريا:

- ستترك إفران بجماله وتقدمه وتحرره؛ لكي
تقطن بولاية تحكم بتشريع قديم! .. سترحل إلى
حيث يجلدون الناس ويقطعون أياديهم!..

رددتُ على كلامه ضاحكا:

- وما الضير في ذلك؟! .. أليست الأحكام نفسها
التي جاء بها ديننا الإسلام؟!

أجاب وفي نبرته بواذر من انفعال:

- بلى يا ليث.. لكن حاكم الولاية لا يعد من
الصحابة! بل هو أقرب إلى المجانين! .. ما زلت
أستغرب كيف قبلَ الحاكم الأعلى تعيينه حاكما
على ولاية البيضاء..

ابتسمت من كلامه مدركا حنقه على حاكم الولاية..
ثم ذكرته قائلا:

- وكما قلت آنفا يا سيدي، إننا نعيش تحت حكم
فيديرالي الآن.. لا تنس أن سكان البيضاء هم
من اختار حاكم ولايتهم ونظام تشريعهم..
ولا تنس أننا مسلمان أيضا..

زفر العجوز مستغفرا ربه.. وقال:

- الحمد لله.. ونعم بالله.. لكن لم قصدني للبيع
دون غيري؟!

سكتُ لهنيهة.. وأجبتة قائلا:

- إنهم يقولون أنك أغنى شخص بالمدينة.. بل
يقولون أنك أغنى شخص في ولاية فاس كلها!..

ثم ابتسمتُ.. وابتسم بدوره يقول:

- خيرا فعلتَ بقدمك إلي.. وددت لو أمكنني شراء هذه المدينة الرائعة برمتها، لا متجرك فقط.. قل لي، أين يقع متجرك من المدينة وكم مساحته؟

- في حي الرياض.. وتبلغ مساحته قرابة الخمسمائة متر..

راقبت ملامحه وهي تنبسط اهتماما بعرضي.. قبل أن يسأل مرة أخرى:

- وكم تطلب ثمنًا له؟!

أجبتَه على الفور:

- عشرة ملايين..

- بالعملة الإفريقية الموحدة؟

- لا.. عشرة ملايين بالعملة المحلية.. أي ما يعادل ستة ملايين "أفري"..

ثم همهم.. ومسح على صلغته من جديد:

- حسنا ياليث.. أنا مهتم بالعرض وبإمكانك أن تقول أن الصفقة قد تمت، لكنني سأبعث مدير أعمالي بعد أيام لكي يقيّم العقار، ويكمل معك بقية الإجراءات..

عندئذ قمت عن مقعدي وصافحته بحرارة:

- سررت بلقائك سيد رشدي! .. أستودعك الله..

ليقف في مكانه ويستمهليني قائلاً:

- مهلا مهلا!.. لمّ العجلة؟!
- فابتسمت.. وربّنت على كتفه متعلّلا:
- إنني مستعجل لحل بعض المشاكل العالقة..
- حينها أبدى تفهما لموقفي.. وصافحني بحرارة لا تقل عن الأولى:
- ليكن الله في عونك يا ليث.. رافقك السلامة! ..
- غادرت مكتبه في خطى مترنحة، لكنني لم ألبث أن عدت إليه مستدركا:
- سيد رشدي أضررك إن وجدت بعض الخراب على طلاء المتجر؟
- أذكر أنه حدّثني بنظرة ارتياب في أول الأمر.. لكنه سرعان ما ابتسم، وتكلم قائلا:
- لا مشكلة.. سنعيد طلاءه في كل الأحوال..

صراحة.. لم أتوقع أن تكون الصفقة بهذا اليسر، خصوصا وأن جل الصفقات التى أبرمتها في حياتي قد طالها تعقيدٌ بشكل من الأشكال.. من المؤكد أن جشع "رشدي" الذي راهنت عليه قد آتى أكله، أو لعل ذلك التيسير كان من الله الذي حن علي أخيرا وأراد أن يساعدني في ترميم حياتي.. وكيف لا يساعدني وهو الذي لا يخفى عليه الضنك والنكد الذي يعكر صفو أيامي، يكفيك نكدا أن تتزوج مريم لتختبرَ معناه، إنها لا تمل من سماع الألحان الحزينة وقراءة القصص الكئيبة، إنها النكد الذي يمشي على قدمين.. ولكي أكون نزيها في نقل الحقائق؛ يتوجب علي إخباركم أنها تحمل قلبا طيبا وروحا نقية.. غير أن ذلك لا يعينني إن كانت تصرفاتها تؤذيني، فالزواج بالنسبة لي عقد شراكة يلتزم فيه الطرفان بخلق جو مريح لكليهما.. أما مسألة الحب والمشاعر تلك، فلا أرى أنها تفيدني في شيء؛ ذلك أنني لا أهتم إلا بما أشعر به نحو الآخرين، أما ما يشعر به الآخرون نحوي، فلا يهمني وليس من شأني، بل هو شأنهم الخاص.. لكن، ومع كل ما بثُّ أشعر به نحوها من نفور، لا أنظر إليها ولا أكلمها إلا مبتسما.. حتى عندما عدت إلى البيت عصر ذلك اليوم ووجدت في يدها رواية من تلك الروايات اللعينة، لم أغضب، ولم أبدِ ردة فعل ناقمة.. بل تظاهرت بالابتسام وحييتها قائلا:

- مساء الخير.. أرى أن قصة الرواية قد أسرَّتْكِ كليا!

رفعت عينيها المغرورقتين بدموع حزنها المجاني..
وتكلّفتِ الابتسام في وجهي قائلة:

- مساء الخير.. لو علمتَ ما حل ببطلّة الرواية من
مصائب لحزنت مثلي يا ليث.. لمّ لا تفضل
بقراءتها سيسرني أن نناقش أفكارها معا..

أعرضت عن عرضها متعلّلا بالدخول إلى المطبخ..
ثم سألتها وأنا أبحث عن كوب القهوة خاصتي:

- مريم لطالما راودني سؤال.. لمّ تعشقين القصص
الحزينة؟!.. كيف تتحمل نفسك ذلك الجو من
الغم والحزن الذي تلتزمين بخلقه كل يوم؟!!

فتنهدت مطولا.. ثم قامت ولحقت بي إلى المطبخ
وهي تجر خطاها، قبل أن تجلس على منضدته وتجيّبي
بمنطق الخياليين الحالمين:

- اسمع يا ليث.. لقد وُلِدْتُ وفي فمي ملعقة من
ذهب، حصلْتُ على كل دمية تمنيتها، وارتديت
كل فستان أعجبنني، ولم أكل إلا مما اشتّيه..
درستُ في أرقى المدارس، وانخرطُ في أفضل
الجامعات، ثم تخرّجْتُ مترجمة كما تمنيت.. أنا
فتاة لم تذق طعمَ الحزن في حياتها، واكتشفتُ
أن حياتها بدون مشاعر حزينة لا تعد حياة كاملة
المعاني؛ لذلك أقرأ للحزينين وأستمع لهم، لعل
حياتي تحظى بنوع من التوازن الذي تفتقده..
قد أبدو في نظرك غبية أو بليدة أو مجنونة يا

ليث، لكنني لا أملك وسيلة أخرى أعيش بها هذا
الجانب الذي لا أجده في حياتي الرتيبة..

لم أتكلم ولم أنطق بعد الذي قالته.. غير أنني كنت
أخاطبها في نفسي مرددا: "بما أنك تبحثين عن المآسي
أيتها الباندا، فأبشري بها عما قريب" ..

عندما انتصف ليل اليوم الموالي كنت مستلقيا على سرير من بضائع متجري وفي يدي حبتان من عقار التيرازوسين المركز.. كنت أقلب بصري في السقف أملاً من زخارفه ما أحفظه في ذاكرتي كوداع أخير.. لقد نفذت الجزء الأول من خطتي حين نقلت معظم الأثاث إلى مخزن مجاور، غير أنني تعمدت الإبقاء على جزء منه قصد إحراقه تنفيذا للشق الثاني من الخطة.. صحيح أنني قد قمت ببيعه قبل يوم، لكن تعويضات التأمين التي سأألتها بعد حرقه فرصة لا تتكرر كل يوم.. الأهم من ذلك، أنَّه الفعل الذي يمثل العماد الرئيس لخطتي، والحل السحري الذي سيفك عقدتي..

قمت عن السرير في هدوء، وتوجهت في خطوات موزونة إلى عبوة البنزين التي اقتنيته سلفاً.. التقطتها عن الأرض وفتحتها، ثم شرعت أسكب ما بها وفق مسار دقيق حرصتُ في رسمه على ألا يظهر الحريق فعلاً متعمداً..

أضربت النار، وابتعدت إلى خارج المتجر، واستلقيت على الأرض ممدداً.. أخرجت هاتفي واتصلت بالمطافئ مبلغاً عن الحريق كإجراء أخير.. ثم أغمضت عيني وبلعت الحبتين منتظراً أن يُغمر علي.. كان تفكيري اللعين مشوشاً، يرسم لي نهايات سيئة لحبكتي، ويتنبأ لي بعواقب كارثية لفعلتي.. إلا أن نفسي كانت

منبعة ضد التشويش وقتها، سيما وأنني كنت على تمام
اليقين بأن الذين يكثرثون للعواقب لا يصبحون أبطالا..

فتحت عيني على سقّف فاتح الخصرة؛ لأدرك بما لا
يدع مجالا للشك أنني في حجرة من غرف المستشفى
المجاور.. أذكر أن رائحة المطاط المحترق كانت تملأ
أنفي حين انتبعت لشرطيين يقفان عند رأسي على يمين
السرير.. أذكر أيضا أنني التفتُ إلى يساري بصعوبة؛
وفوجئت بزوجتي وهي تجلس مبتلة العينين وإلى
جوارها حماتي ذات الملامح الناقمة المتجهمّة.. كدت أن
أبتسم في وجهيهما لولا أنني تذكرت أن ذلك قد يفسد
علي خطتي، فعبستُ متعمدا وأعرضت عنهما لأحرق في
الشرطيين من جديد.. عندئذ عدل أكبرهما سنا ياقة زيه
الرسمي، واقترب مني في بشاشة وقد نزع عنه قبعته
ليبدو شعره المخضب بالشيب، في الوقت الذي تولى
فيه الشرطي الآخر مهمة التسجيل ضاغطا على سواره
لتبدأ الكاميرا المثبتة في قبعته بالتصوير.. ويبادر الأول
بالسؤال ممهدا:

- يسرني أنك بخير سيد ليث.. أنا هنا لأخذ
إفادتك بخصوص الحادث..

ارتبكت قليلا وأنا أتعمد أن أنظر إليه في استغراب،
ثم ارتجلت الدور وقد ساعدني في إتقانه مفعول
التيرازوسين الذي أرخى عضلاتي بشكل رهيب:

- أين أنا؟! .. من أنا؟!..

ثم التفتُ ببطء مشيرا إلى زوجتي وأمها:

- ومن هاتان البدينتان؟!

وضعتُ زوجتي يدها على فمها وقد أطلقت دموعها، وتمتمت أمها بعبارات رجحتُ أن تكون شتائما لوصفي إياها بالبدينة.. ثم قطب الشرطي حاجبيه مستغربا، وخرج صديقه من الحجرة لينادي عناصر التمرير.. في تلك الأثناء شرعتُ في ثني رقبتني ذات اليمين وذات اليسار وأنا أصيح بنشيد تعلمته أيام الروضة وسط ذهول الحاضرين..

دخلتِ الممرضة مهرولة إلي، ثم أمسكت بيدي لتتفقد المؤشرات الحيوية على الشريط اللاصق بمعصمي.. تمعنت قليلا في ملامحي التي حرصتُ أن تبدو بلهاء سخيفة، إلى أن أدركتُ أن عليّ نقل التمثيل إلى درجة أعلى من الإقناع؛ فانفجرت في وجوههم بسلسلة من الضحك الهستيري المتواصل..

كنت ألتفتُ في شتى الاتجاهات مستعيرا من السناجب بعضا من حركاتها، ومن القروذ بعضا من أصواتها.. فتصاعد نحيب زوجتي إلى بكاء ولطم، وازدادت همهمات حماتي إلى دعوات تطلب العفو والستر.. إلى أن اقتنعت الممرضة أخيرا وطلبت من الجميع مغادرة الحجرة..

تردد الشرطيان في بادئ الأمر، إلا أن الممرضة
أصرت عليهما:

- من فضلكما! .. لا بد وأن المريض يواجه صدمة
نفسية كما تشاهدون..

ابتسمتُ بمكر، وانصرف الجميع.. على الرغم من ذلك
أمكنني سماع صوت حماتي اللئيمة خلف الباب وهي
تخاطب ابنتها دون وجل:

- لا شك أنه خسر عقله كما خسر بضائع متجره!
لطالما نصحتكِ بابتعادكِ عن خالتكِ لكنكِ فضلتِ هذه
التجارة البائسة..

ضحكتُ من قولها، وأجبتها في نفسي ساخرا: "
ابنتكِ أكثر بوارا أيتها الشمطاء.. وعما قريب ستعود
بضاعته إليك" ..

مر عشرون يوما.. عشرون يوما أقنعت فيها جميع من زار حجرتي من الأطباء والجيران والأصدقاء بأنني قد جنت رسميا، باستثناء أمي التي اتصلت بها ووجدت صعوبة بالغة في إقناعها بعافيتي، وبأن الأمر لا يستحق أن تترك مدينتها وتتكد مع أبي عناء سفر لا ضرورة منه.. حتى "رمزي" الداهية، وكيل أعمال رشدي الذي لا تخفى عنه خافية في المدينة، لم يفتن لتمثيلي، وكاد أن يلغي صفقة البيع في بادئ الأمر.. غير أنني اضطررت لإخباره بالحقيقة وتمكنت من إتمام إجراءات البيع والإمضاء على العقد في غفلة من الممرضات.. وكما كان متوقعا، لم يكن رمزي المحامي الوحيد الذي زارني، بل جاء بعده بأسبوعين "هيثم الدباغ" محامي عائلة زوجتي المعروف بالانتهاز والتسلق.. مازلت أذكر كيف دخل الحجرة بقامته المنتصب وفي يده ملف أسود، تتبعه زوجتي المنكسرة مطأطأة الرأس، وخلفهم حماتي الحيزبون التي لا تنقصها سوى مكنسة عتيقة لتطير بها كما تطير المشعوذات..

كانوا يرتدون السواد وكأنهم يحضرون عزاء، تمنيت إثر ذلك لو أمكنني أن أكون على سجليتي لكي أبرحهم ضربا وألقيهم من النافذة تباعا.. بيد أنني كنت أتمالك نفسي مظهرًا لهم بعضا من الجنون الذي ارتأيت أن أبدية على شكل نهيق متقطع لحمار صغير.. كانت الحماة

ومحاميها لا يبذلان جهدا في إخفاء ضحكاتهما علي،
وكانت زوجتي المتحسرة المغلوبة على أمرها تنظر إلي
في إشفاق وحزن يكاد ينفجر دموعا من عينيها
المحمرتين.. في الوقت الذي كنت أضحك فيه مشفقا
على الجميع..

أخرج المحامي قلما من جيب سترته، ثم ضغط
على قمته بسبابته، وفتح الملف بيسراه مخاطبا حماتي
وهو يحدجني بنظرة ارتياب:

- سيصعب علينا أخذ إمضائه في وضعه هذا
سيدتي!

تأففت العجوز.. وقالت بنبرة الأمر الناهي:

- فلتُعْجَلْ يا هيثم بإنهاء هذه المهزلة، لن أعود
إلى البيت إلا وابنتي طليقة من هذا المجنون..

ثم تقدمت ونزعت الملف والقلم من يديه، ورمتهما على
صدري وهي تصرخ بصوت مكتوم:
- وقّع أسفل هذه الورقة! ..

تحركت زوجتي المسكينة من مكانها وأمسكت
بمرفق أمها تستعطفها ألا تفعل، لكن هذه الأخيرة كانت
أقسى من أن تستجيب لتوسلات ابنتها، حيث لم تصدق
أنها قد وجدت أخيرا فرصة تفصلني بها عن مريم التي
لطالما أرادت لها زوجة لابن أختها.. لا أنكر أنني فكرت في
الامتناع عن التوقيع وتأجيله تعذيبا لها.. إلا أن لهفتي
للتحرر من سجن الارتباط حالت دون ذلك؛ لأمسك بالقلم

وأوقع ورقة الطلاق بمنتهى البهجة والانشراح.. انشراح
تجلى بوضوح على قسّمات وجهي، وعلى قسّمات وجه
حماتي أيضا.. لدرجة أنها طلبت من ابنتها التخلي عما
يترتب لها عن الطلاق قائلة:

- من الأفضل أن تتنازلي عن حقك في مسكنه
ومتجره!.. نحن عائلة ذات سمعة مرموقة كما
تعلمين..

ضحكت في قرارة نفسي على هذه المسكينة التي لا
تعلم عن بيعي لمتجري، وشاهدت زوجتي وهي تخرج
منهارة على كتف أمها تصدح بالبكاء والعيول.. يا لفرابة
النساء!.. ألم تكن تبحث عن الحزن وتتمنى أن
تعيشه؟!.. هاأنذا حققت لها أمنيتها وخلقت لها التوازن
الذي تتمناه، فلماذا العويل إذن؟!.. هل ظنت الحمقاء أن
الحزن بتلك البساطة التي تتيح للمرء الاستمتاع به؟!..
على كل حال ما عاد الأمر يهمني، وما عاد هنالك من
داع لإخبارها أن قراءة الروايات لا تقاس أبداً بعيش
أحداثها على أرض الواقع.. في كل الأحوال، صار لزاماً
عليّ التخطيط لحياتي القادمة؛ فلقد تخلصت من العبء
الذي كان يربطني، وصار بإمكانني أن أعيش عالم التشرد
والمجانين كما يعجبني..

ومع أنني كنت متلهفاً بما لا يقاس لمغادرة
المستشفى والبدء في مغامرتي الجديدة، إلا أن الطبيب
المشرف لم يسمح لي بالمغادرة.. أذكر أنني ألححت عليه

في الطلب مرارا، بيد أنه ظل متمسكا برفضه، معللا بحالتي التي تفتقد للاستقرار الذي يجب أن تكون عليه..

بعد هنيهة من التفكير في كلامه، تذكرت أنني غير مجبر على الالتزام بتعليماته، وأن تقمّصي لشخصية المجنون يتطلب مني التسلل والهرب من المستشفى بكل بساطة.. بناء على ذلك، انتظرتُ حلول ساعات الفجر الأولى حيث يتناوب الموظفون، ثم ارتديت ثيابي، وتسلت حافيا بحذر..

كنت أخطو بأطراف أصابعي تارة، وبأطرافي الأربعة تارة أخرى.. أذكر أنني استغرقت ربع ساعة كاملة قبل أن أتمكن من بلوغ الباب.. وحالما صرْتُ على بعد خطوتين منه؛ ابتسمت مستبشرا، ثم أطلقتُ ساقِي للريح نحو الفضاء الفسيح..

ولاية البيضاء

كانت الساعة تشير إلى الثالثة عصرا لحظة وصولي إلى محطة "عين السبع" شمال مدينة الدار البيضاء.. لقد قطعت مسافة الثلاثمئة كيلومتر من "إفران" في غضون خمسة عشر دقيقة فقط، ما يعني أن كبسولة "الهابيرلوب" التي جئت على متنها كانت تسير بسرعة ألف ومئتي كيلومتر في الساعة.. كثيرون هم الذين لا يقامرون بوضع أرواحهم داخل هذه القذيفة التي تضاهي سرعتها سرعة الصوت، ولا أنكر أنني كنت واحدا من هؤلاء، لكنني ارتأيت أن أغير من عاداتي ما دمت مقبلا على القيام بأمر أكثر جنونا.. المضحك في الأمر، أنني مكثت لساعتين من الانتظار في الطابور الطويل قبل أن أتمكن من استلام حقائبي.. ولعل فرحتي بالعودة إلى مسقط رأسي بعد سنة من الغياب، حالت دون أن أجهر بتذمري من عجز المسؤولين عن إيجاد حلول لمشاكل التأخير والاحتفاظ التي يعاني منها الوافدون إلى البيضاء..

خرجت من المحطة وحمرة أشعة الشمس التي مالت إلى الغروب تلفح وجهي، وشرعت أجر حقيبتتي المدوبلة وأنا أتأمل بنيان الحي الذي ناطح ارتفاعه السحاب، وإلى الحداثق المعلقة التي تصل أسطح البنايات فيما بينها.. لقد تخلى أرباب العقارات عن الأشكال الهندسية القديمة شيئا فشيئا، وشرعوا في اعتماد هذه الأشكال

الأسطوانية المخروطية تلبية لنداء العصر، غير أن
واجهاتها الزجاجية كانت تشكل مصدر إزعاج لا ينتهي
لعيني كلما عكست شعاع الشمس..

قبل أن أغادر منطقة عين السبع إلى "درب السلطان"
حيث يقطن والدي، صادفت حشودا من المتظاهرين
وهم يُعبّرون عن تدمرهم من الطرق المعلقة التي شرع
مجلس المدينة في إنشائها؛ كانوا يُصرّخون بأن بناء
الشوارع المعلقة سيحجب عن الكثيرين ضوء النهار،
وسيحول حيهم إلى ظلام.. لم أتردد في الانضمام إليهم،
وانخرطت في ترديد شعاراتهم بحماس لَمَّا شعرتُ برغبة
كبيرة في إرواء حس وطني لطالما افتقدته، معتبرا الأمر
فرصة للقيام بجولة في أحياء مدينتي، ومناسبة
لتجديد روابطي ببنائاتها التي تبعث في نفسي شتى
الذكريات..

كنا ننتقل من زقاق إلى زقاق، ومن شارع إلى آخر..
نوزع المنشورات على السكان وأرباب المتاجر.. نصح
بالشعارات بلا ملل، ونواصل التصفير تنديدا بلا كلل..
إلى أن صادفنا في طريقنا جماعة من الناس يحملون
كهلا خمسينيا متأنقا في جلبابه الأبيض.. كانوا يُكبّرون
ويسبحون، وكانت النساء حوله تزغردن وتضربن
الدفوف.. ظننت للوهلة الأولى أنه عريس في يوم زفافه،
إلا أن خشوع المتظاهرين في ذلك الموقف أثار تساؤلي..
ما الذي يجري هنا يا ترى؟! إن لم يكن هذا الكهل

المحمول على الأكتاف عريسا فمن يكون؟.. آاه! لعله
مرشح منافس قد كسب الانتخابات إذن!..

ثم التفتُ إلى شيخ من المتظاهرين عن يميني،
وسألتَه قائلاً:

- من أي حزب هذا المرشح؟!

رمقني الشيخ بنظرة استغراب.. صمت لهنيهة وهو
يحدق بي، ثم سألني:

- هل أنت أجنبي عن المدينة يا بني؟!

عجبت من سؤاله.. ثم أجبتَه:

- كلا.. ولكنني غبت عنها سنة كاملة..

فرد بعد أن تنهد قائلاً:

- لقد تغيرت الكثير من الأشياء خلال هذه
السنة!.. إن تعيين "نعمان التازي" حاكماً للولاية
قلب نظام التشريع والقضاء رأساً على عقب، لقد
اقترح استفتاء لاعتماد القانون الإلهي وصادقت
عليه أغلب الساكنة..

- أعلم ذلك يا سيدي.. لكن ما علاقة هذا الكهل
المحمول بالقانون الإلهي..

فابتسم الشيخ ضاحكاً.. وقال:

- إن الشخص الذي ظننتَه مرشحاً هو في حقيقة
الأمر محكوم بالموت..

وجمت مصعوقاً مما سمعته.. وأردفَ قائلاً:

- إنهم في طريقهم إلى ميدان الحي لإقامة الحد عليه..

ثم سألته متعجبا:

- لكن لمّ الدفوف والزغاريد؟! إنه في طريقه إلى الموت!

فأجاب وهو ينظر إلى الهالك مشفقا:

- إنها سياسة نعمان.. لقد أدرك أن هذا الشعب شعب يحب البهجة والمرح والحفلات، فسَنّ لهم هاته الطقوس التي تنزع عن الموت سواده وتضفي عليه بعدا احتفاليا.. وتلاعب بالكلمات والمصطلحات فسمى الموت انتقالا والإعدام تطهيراً.. فتقَبَّل الشعب فكرته، وطبق الناس سنّته.. أفهمت الآن يا بني..

- أجل.. أجل فهمت..

وصلتُ إلى "درب السلطان" وآذان صلاة العشاء.. كانت النبرة المزعجة لسائق الطاكسي الذي أقلني ما تزال عالقة في أذني.. لقد أرهق مسامعي بثرثرته طوال الطريق، لم يترك الرجل موضوعا إلا وتطرق إليه، فكان من البديهي أن يذكرني أمره بمقولة جارنا التي تقول: "خذوا السياسة من أفواه الحلاقين، وعلم الاقتصاد من المتسولين، والهراء من أرباب الطاكسيات.."

وفيما كنت منشغلا بتصفية ذهني مما علق به من هراء، عرجت على حي "بوشنتوف" العريق وبدا لي

منزل العائلة بإطلالته التي تبعث في نفسي معانيا تعز على الوصف.. سمريت أنظاري على واجهته الزرقاء لدقائق وأنا أراقب إشارات نوافذه البرتقالية، مُنْقَلًا بصري بين طوابقه عرضا وطولا.. وشرعت أراقب شبابيك نوافذه علني أصادف إطلالة من والدتي أظفر فيها منها بابتسامة ترحيب.. كنت أقترب من الباب متشوقا ونبضي يتسارع بفعل الأدرينالين.. أنصتُ بإمعان لما يصدر خلفه من أصواتٍ مستنشقا رائحةً ما أمامه من ياسمين.. وعندما أصبحتُ على بعد طرقةٍ منه، غيرتُ رأيي وقررت أن تكون النافذة الخلفية مدخلي؛ رغبةً مني في مباغته والدي كما اعتدت أن أفعل منذ صغري.. ففتحتُ الشباك على مهل، ووضعتُ حقبتي على طاولة قريبة.. قفزت بخفة لئلا أصدر صوتا، ثم تسللتُ بهدوء إلى البهو حيث كانا يجلسان، وجلستُ خلفهما واضعا ساقا على ساق دون أن يشعرا بوجودي.. لاحظتُ تغييرا بسيطا على الديكور؛ لقد قاموا بتغيير الستائر الكهربائية إلى ستائر حريرية خضراء، واستبدلوا الأرائك الإنسيابية الطويلة إلى أخرى تقليدية صغيرة..

خمس دقائق من مراقبتهما كانت كافية لآخذ فكرة عن الإيقاع البطيء الذي تسير عليه حياتهما.. كانت أمني تمسك مجلة بالقرب من وجهها وتحملق في صفحاتها مطولا، وتلفتتُ إلى أبي دون أن تكلمه، ثم تعود إلى التحديق إلى المجلة كما يحدق الحلزون.. أما أبي فنهض عن كرسيه الهزاز فجأة، ثم شرع يبحث عن شيء ما بين

جنبات الغرفة وهو يخطو ببطء كالسلحفاة.. قاومت
جاهدا ألا أضحك من وثيرة حركاتهما إلا أنني فشلت في
ذلك؛ وأصدرتُ قهقهة مدوية اهتزت لها أُمِّي من شدة
الذعر، في حين سقط أبي على الأرض فزعا.. حينئذ
وقفتُ في مكاني وفتحتُ ذراعي قائلاً جملتي الشهيرة:
- هيا، هيا، حيوا ابنكم الوديع..

نظرا إلي بذهول واستغراب.. ثم صاحت أُمِّي:
- إنه ليث! لقد عاد يا عباس!..

لم يصدق أبي ما تفوهت به أُمِّي؛ فارتدى نظاراته..
وحقق مليا إلى وجهي، قبل أن يمتد خداه بابتسامة
ويرتفع حاجباه قائلاً:
- ابني العزيز!.. عانق أباك!..

فأقبلتُ عليهما.. والتقينا في عناق حار أحسستُ من
خلاله أنني ما أزال ذلك الصبي الصغير الذي يحتمي
بوالديه أثناء خطواته الأولى.. أذكر أنني ظللت ملتصقا
بهما لبرهة من الزمن قبل أن يبادر أبي بالقول:
- لقد اشتقنا لك كثيرا يا بني!.. لماذا لم تعلمنا
بقدمك؟

- أردتُ أن أبقِها مفاجأة.. أنا أيضا اشتقت لكما!..

عاد أبي إلى الجلوس على أريكته، فيما ظلت أُمِّي
تعانقني وتتأمل تقاسيم وجهي بعينيها المغرورتين
بالمدوع.. إلى أن قالت:
- سنة من الغياب يا ولدي!..

فقبلت يديها وأنا أقول:

- سامحيني يا أمي، لقد كانت سنة حافلة
بالمتعاب والمشاكل..

ابتسمت ابتسامة مسامح.. ثم عقت هامسة وهي
تجذب خدي:

- هل أنت بخير يا بني؟! أضحك ما أخبرتني به
على الهاتف يا ولدي؟! ..

فأجبتها على الفور:

- أجل.. أجل يا أمي.. أنا في كامل قواي العقلية..
كل ما حدث كان صادرا عن رغبتني وتخطيطني!

زفرت أمي.. وقطبت حاجبيها عابسة وقالت بنفس
النبرة الهامسة:

- لا أعلم بمَ ورطت نفسك مجددا! .. يبدو أنك لا
تنوي التخلص من طباعك يا مشاكس! ..

حركت رأسي يمنة ويسرة أدعي اللطافة تهربا من
الجواب.. إلى أن أردفت أمي:

- وأين زوجتك لمَ لمَ تحضرها معك؟..

- تلك حكاية أخرى.. سأخبرك بها لاحقا..

في تلك اللحظة صاح أبي الساخر ضاحكا:

- تدللينه وكأنه ما يزال طفلا يا هاجر.. انظري
إليه إنه في منتصف الثلاثينات، وعمما قريب
سيصبح شيخا..

- ردت عليه أمي بقسوة مصطنعة :
- كلا! .. إنه ما يزال صغيرا في عيني أيها الشيخ الهرم!
- ضحكنا جميعا.. وجلسْتُ على الأريكة ممسكا بيد أمي.. ومازحت أبي متهكما:
- أرى أن أمي قد أفحمتك يا شيخنا!
- ضحك أبي ضحكة تمزج بين الدعابة والمكابرة.. ثم نظر إلي وقد استقر على كرسيه مجددا:
- من حسن حظك أن تسلكُ إلى البيت صادف خروج "ديدي" إلى التسوق...
- سكْتُ محاولا الاستيعاب للحظة.. قبل أن أسأله:
- ديدي من؟!
- فأجابني وهو يشير إلى أمي:
- إنه كلب أمك الحارس..
- سكْتُ مرة أخرى وقد ازداد استغرابي.. ونظرتُ إلى أمي المبتسمة علَّها تفسِّرُ الأمر، قبل أن ألفتَ إليه وأسأله مجددا:
- ومتى صارت الكلاب تتسوق يا أبتاه؟!
- فأجابني وهو يخرج لسانه ساخرا :
- إنه كلب آلي، إنه أذكى منك بمئات المرات يا ليث..
- لأَتوجه إلى أمي بالسؤال مشككا:

- أصبح ما يقوله أبي؟!
- ابتسمت وأومأت برأسها تأكيداً لصحة ما قاله، ثم
أردف أبي ضاحكاً:
- لقد جعلت أمك من يدي نسخة مطابقة لك،
حتى أنها قامت بتحفيظه أشعار المتنبي كلها..
- تظاهرت بالحسرة والأسى وأنا أقول:
- تبا يا أمي!.. لقد جعلت كلباً يتفوق علي! ..
- مسحت أمي على ظهرها مواسية:
- لا تحزن يا ابني الحبيب! إنه مجرد آلة..
- حينها بدأ أبي بإبراز أسنانه كلها وتحريك فكها
السفلي يمينا ويسارا.. فتعجبت مما يقوم به وسألته
ساخراً:
- ما هذه الابتسامة الخالية من التعبير يا أبي؟!
- هل تبتسم أم تتألم؟!
- أجابت أمي:
- إنه يريك أسنانه المستنسخة، لقد قاموا بتجميع
خلاياها الجذعية في أنابيب اختبار ثم زرعوها
في لثته..
- اقتربت من أبي متمعنا في أسنانه الجديدة،
وشرعت أتفحصها منبهاً:
- رباه، لقد استنبتت أسناناً طبيعية بعد الثمانين يا
أبي!..

أجابني متفاخرا:

- أجل يا بني إنه العلم! .. أضف إلى ذلك أن استنباتها كلفني ثلاثمئة وعشرين ألفا..
- ماذا؟! لقد أنفقت ثروة على فمك يا صاح!..

عَقَّبَتْ أُمِّي ساخرة:

- كان عليه أن يستنسخ دماغا جديدة بدل الأسنان يا بني..

عندئذُ فُتِحَ الباب ودخل الكلب الآلي ويده صحيفة!.. كان عبارة عن هيكل من التيتانيوم والسيليكون، ببنية آدمية ورأس كلب، مع عينيْن كبيرتين وأذنين متدليتين تجعلانه أقرب شيها إلى كلاب مسلسلات الكرتون منه إلى كلاب الطبيعة.. كنت على وشك الضحك على شكله الكاريكاتوري ومشيته المتكسرة العجيبة قبل أن أتمالك نفسي وأقمع رغبتني تلك احتراما لمشاعره المبرمجة سلفا.. لكنه قام بوضع الصحيفة على الطاولة وصعد إلى الطابق العلوي دون ان يلتفت إلينا أو يبيدي أي اهتمام بقدومي.. حينها انفجرتُ من الضحك وسألت أُمِّي:

- إلى أين يذهب شبيه سنوبي هذا؟!
- إلى غرفتك لكي يستريح قليلا..
- وأسكنتموه غرفتي أيضا؟! وهل الآلات تستريح؟!

- لا يا ولدي.. إنما يأخذ وقتا ليشحن نفسه
بالكهرباء..

- ممم هكذا إذن..

ثم قامت أمي في نشاط.. ومسحت على رأسي
بحب، وقالت:

- لا تشغل نفسك به يا بني.. سوف أقوم إلى
المطبخ لكي أعد لك الأكلة التي تحبها على وجبة
العشاء؛ لاشك أنك جوعان..

- أجل يا أمي إنني أتضور جوعا..

ما زلت أذكر كيف استيقظتُ باكراً يومها.. وكيف ظللتُ في سريرى محققاً إلى السقف لدقائق عديدة بحثاً عن حبكة لروايتي التي عذمت على كتابتها.. كنت مدركاً تمام الإدراك، أن روايتي يجب أن تتعدى خمسين ألف كلمة على الأقل حتى تنال احترام النقاد.. ما يعني أنني بحاجة إلى كثير من الوقائع.. ولكي أضمن وقوع الكثير من الأحداث؛ سيتحتم علي الاحتكاك بعدد كبير من الشخصيات.. لكن، كيف لي أن أجد كمّاً محترماً من المجانين والمشردين؟! وكيف لي بحبكة أوفّق بها بين الصنفين دون أن تختلّ سلاسة سرد الرواية وخطّها الزمني؟! .. رباها! لا يبدو تأليف رواية أمراً سهلاً بالمرّة!..

نهضت عن سريرى، وعمدت إلى خزانتي القديمة.. أخرجت دفترًا وقلمًا، ثم جلست إلى مكتبي وقد أنرت ضوء مصباحه.. اتكأت على كرسيه الجلدي وشرعت أتأمل بياض الورق علني أقتنص إلهاماً مفاجئاً.. مرت عشر دقائق.. ربع ساعة.. نصف ساعة.. ساعة.. دون أن أوفّق في كتابة جملة مفيدة.. ودون أن يتسلل الملل إلى حماسي؛ ذلك أنه موقف لطالما مررت به.. كل عمل أدبي يتوقف على ضربة البداية، تلك الأسطر الأولى التي تتناسل في ما بينها لتتسلسل الكلمات تباعاً خلفها.. إنها أشبه بإدخال خيط في عين إبرة بالغة الصغر.. سيصعبُ

الأمر عليك في بادئ الأمر.. لكن، بمجرد أن يعبرَ الخيط عينَها، ستشرع في خياطة الكلمات والمعاني.. وكما تعتمد الخياطة على متانة الإبرة وطول الخيط، فإن الكتابة تعتمد على لياقة الذهن وطول النفس..

وبينما كنت شاردة في ورقتي العذراء، عاجزا عن تلقيحها، سمعتُ طرقا على الباب.. فاعتدلت في جلستي وطلبْتُ منه الدخول قائلا:

- تفضل! ..

فُتِحَ الباب ودخل الكلب الآلي وفي يده فنجانة قهوة.. لاحظتُ أن خطواته صارت أكثر خفة ومرونة عن آخر مرة رأيته فيها، وخطفتُ نظرة لأذنيه المتدليتين المضحكتين رغبة في الترويح عن نفسي.. ثم انحنى قليلا ووضع الفنجان على الطاولة دون أن يتكلم أو ينظر إلي.. وقبل أن يهم بالمغادرة، قلتُ له من باب اللباقة شاكرا:

- سلّمت يداك يا ديدي..

كانت تلك المرة الأولى التي أتحدث فيها إلى آلي من صنفه، لذلك ترقبتُ جوابه في فضول شديد.. إلى أن رمقني بعينه الشفافتين المستديرتين واتسع بؤبؤاهما الرماديان قائلا بصوت تشبه نبرته صرير الباب:

- لستُ من حُضِرَ القهوة.. أنا آليُّ حارس ولا شأن لي بالمطبخ! ..

ابتسمتُ من جوابه، وازدادت رغبتى في الحديث إليه.. فسألته قائلاً:

- قل لي يا ديدي.. كم مضى عليك في بيتنا؟

ليُرَدَّ ديدي على الفور وقد خَفَّتْ نبرته واعتدلت:

- أنا هنا منذ مئة وخمسين يوماً وعشر ساعات وأربع دقائق..

ضحكتُ من دفته دون أن أستغرب.. على الرغم من ذلك، كنت ما أزال أنظر إليه باستصغار كلما استحضرتُ نماذجاً متفوقة من الآليين اليابانيين والكوريين.. وكلما نظرتُ إلى هيكله وتصميمه القديم.. للسبب ذاته، سألته قائلاً:

- أي طراز أنت يا ديدي؟!

فضاقت عيناه وارتفعت وجنتاه وتمدد فمه مشكلاً ابتسامة ظريفة:

- اسمي ديدي.. وأنا من إنتاج شركة "تشيهيبارا روبوتكس"، الجيل الأول من طراز "سنوبي" لسنة 2031..

لأتفاجأ قائلاً:

هممم أنت إنتاج ياباني إذن!.. ظننتك إنتاجاً برازيلياً أو هندياً..

فهز رأسه دون أن يتخلّى عن ابتسامته.. ثم سألته:

- وأين كنت كل هذه السنوات؟!

- فهز كتفيه ببطء وهو يحرك رأسه مجيباً:
- لا أذكر.. لقد محت السيدة هاجر أجزاء كبيرة من ذاكرتي..
 - مممم.. حسناً..
- سكتُ للحظة وأنا أنظر لورقتي، ثم اتكأت مجدداً وقد تبادر إلى ذهني أن أستشيريه في أمري لعله يفيدني.. فتوجهت إليه بالقول ممهداً:
- يقول أبي إنك آلي شديد الذكاء! .. يقول أيضاً إنك سريع التعلم! الشيء الذي يدفعني إلى استشارتك في موضوع يهمني..
- أمال ديدي رأسه إلى كتفه وقد قطب حاجبيه ليُشكِّلَ علامات الاستغراب.. ثم سألني:
- عن أي موضوع تتحدث سيدي؟!
 - أود كتابة رواية عن عالم المتشردين والمجانين.. لكنني لا أجد خطة لذلك! ولا أعلم من أين أبدأ! .. أتستطيع مساعدتي بما تخزنه ذاكرتك من المعلومات؟! ..
 - أتطلب مني أن أساعدك في كتابتها؟!
 - كلا يا ديدي! .. فقط أريد أن ترسم لي خارطة أتبعها في عملي، أو خطة تساعدني في أمري..
- فأطرق ديدي رأسه قليلاً.. وبعد هنيهة هزه وقال:
- لم أفهم سؤالك جيداً! .. لكنني أنصحك بزيارة مستشفى الولاية للأمراض النفسية والعقلية؛ إنه

المكان الذي يضم أكبر عدد من المجانين.. كما أقترح عليك زيارة سوق العطارين القديم؛ ففي جنباته ينتشر الكثير من المتشردين.. أعتقد أن احتكاكك بهم سيوفر لك المادة الأدبية اللازمة لكتابة روايتك.. كما أنصحك باعتماد أسلوب سلس يُجيزُ القارئ على الانتقال من فكرة لأخرى دون الإحساس بالملل.. مع ضرورة كتابتها باللغة الإنجليزية أو لغة الماندارين لكي تصل إلى أكبر عدد من القراء، ولكي لا تجد صعوبة في مواكبة مصطلحات العصر وتعابيرهِ..

عندئذ قمْتُ عن الكرسي وحملت فنجان القهوة ضاحكا حين اكتشفت أنه آلي عاجز عن الإبداع كمعظم الآلات.. ثم شكرته :

- أنا شاكر لما قدمته لي من نصائح يا ديدي!..
لكنني أفضل كتابتها بالعربية..
فرد ديدي قائلا:

- لكن العديد من الكتاب العرب البارزين اتجهوا إلى الكتابة بالإنجليزية والماندارين؛ فاكسبو شهرة بلغت الآفاق.. إن اللغة العربية لغة قاصرة عن التعبير، لقد صارت شبه عقيمة أمام ما نعيشه من تطور يا سيدي! ..

رشفْتُ رشفة من القهوة، واقتربتُ منه مبتسما:

- اسمع يا ديدي.. إن اللغة العربية لغة لا تموت، أما
الذين يتهمونها بالعقم، فهم ببساطة، غير قادرين
على الإنجاب والإتيان بشيء جديد..

خرجت من المنزل بعد أن صممتُ على خوض غمار
التجربة.. وبعد أن تعمدت ارتداء جاكيت أبي البني
القديم مع كنزة وقبعة صوفيتين من اللون نفسه،
وبنطال أسود عمدتُ إلى تمزيقه على مستوى الركبتين..
كنت حريصا على الظهور بمظهر المتشردين، حريصا على
التطبع بطباع المجانين.. حتى أنني استغرقت ساعة
أمام المرأة عابثا بشعري ولحيتي، ملطخا وجهي بالتراب
لأبدو كما يريدون..

كنت أسير متوجها إلى سوق العطارين القديم عملا
بنصيحة "ديدي"، مراقبا تصرفات المارة والعابرين، رغبة
مني في ملاحظة ما يصدر عنهم وتدوينه بعد حين..
كنت أتعمد السير باضطراب، تارة مترنحا كالسكران، و
أخرى متنططا كالسعدان.. أضحك في وجوه الناس
كالمهرج حيناً، وأعبس في وجوههم كالمجرم حيناً..
أجهزُ تارة بالثرهات والخزعبلات، وأصدعُ تارة أخرى
بالحكم والموعظات.. دون أن تغفل عيني عن حركاتهم
وسكناتهم، مقتنصا كل صغيرة وكبيرة من ردات
أفعالهم..

كان أغلبهم يتفادى المرور بمحاذااتي، وكانت استجاباتهم لمظهري تتفاوت من شخص لآخر.. فصنف بيتسمون في خوف، وصنف ينظرون إلي بازدراء، وصنف آخرون يترفعون عن النظر إلي وعلى وجوههم علامات النفور والتقزز.. وضمن هؤلاء جميعا كانت هناك قلة يتمتمون ويتهامسون، دون أن أدري ما إن كانوا يُشفقون أو مني يسخرون..

تواريت إلى الظل مبتعدا عن شمس الظهيرة، وجلستُ على عتبة منزل لألتقط أنفاسي، ثم شرعت أنظر إلى طول شارع "الفداء" الذي ماتزال بنياته التي شُيّدت في فترة السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي محافظة على رونقها وجمالها.. وإلى جلبة حركة المرور التي لا تختلف كثيرا عن نظيرتها في ولاية فاس.. بيد أنهم في هذه الولاية لايجيزون للسكان التحليق بألواحهم الطائرة، إلا في الأحياء الجديدة، وعلى ارتفاع لايتعدى الطابق الثالث.. لقد سنت ولاية البيضاء أكثر القوانين تحفظا على مستوى العالم، حيث لم تصوت على اعتماد سياسة البيت الزجاجي التي يتصل فيها كل شيء عبر "انترنت الأشياء"، واكتفت باعتماد مقاربات أمنية تقليدية، في الوقت الذي اعتمد فيه قضاؤها مبدأ التعزير والقصاص كما ورد في القرآن الكريم.. على الرغم من ذلك، يفضل المواطنون سياسة العفو والتسامح التي ينفق الجناح الإعلامي للولاية ميزانية كبيرة للترويج لها على شكل دعايات في

الطرق، أو إشهارات على القنوات.. مما يحول دون تنفيذ القصص في حالات كثيرة.. الشيء الذي حوّل الولاية إلى مجتمع متسامح سُجِّلَتْ فيه أدنى مستوى للجريمة على مستوى الدولة كلها.. وجعل الكثيرين يتوقعون أن وصول هذا المجتمع إلى الكمال والمثالية بات مسألة وقت فقط.. غير أنني ظننتُ ساعتها أن المثالية ما تزال بعيدة عن هذا المجتمع، لا سيما بعد أن لمحتُ سيدة من الطبقة المخملية قادمة تنظر إلي باحتقار.. كانت تمشي على عجلٍ وتمسك بيدها طفلة صغيرة شقراء، وكانت ملامح الطفلة السمحة ونظراتها البريئة تشدني إليها بشكل عجيب.. فلاحظتُ المرأة ذلك، وتعمدتُ أن تُبعد طفلتها عن المرور من أمامي بأقصى ما يفسحه لها الرصيف من مساحة.. بيد أن الطفلة التي كانت تبتسم لي ببراءة توقفتُ رغما عن رغبة أمها، ونزعت يدها من يدها مقبلةً نحوي، وقدمت لي قطعة بسكويت كانت تحملها، ثم انصرفت وهي تلوح لي بيدها الصغيرة..

أذكر أنني ابتسمت طويلا مما فعَلَتْهُ تلك الصغيرة معي.. لقد علّمتني أن ابتسامة صادقة قد تُنسينا كل ما نتعرض له خلال يومنا من إهانات وآلام.. لكن، معظم الناس -ومع الأسف- لا يتكلفون عناء الابتسام..

دخلت سوق العطارين من مدخله الكبير.. كان مزدحما بالنساء كعادته، وظننتُ أنني سأستغرق وقتا طويلا للعبور إلى جنباته.. إلا أن خوف النساء مني، واشمئزازهم من كراهة منظري؛ كان يدفعهن إلى إفساح الطريق لي.. فكنت أخطو مستعجلا رافة بهن، متفاديا النظر إلى وجوههن.. دون أن أحرم نفسي من تفقد البضائع الغريبة التي يعرضها العطارون على طول الأروقة الضيقة..

جلود غزلانٍ معلقة.. سلاحف وقنافذ في أقفاص.. سناجب وضبَّابٌ وخرابيٌّ في كل الأنحاء.. روائح الخزامى والبخور والياسمين تملأ الأرجاء.. مازال السوق العتيق على شكله القديم، باستثناء دكاكين العرافين والمشعوذات التي تمت إزالتها بالكامل، وحلت محلها دكاكين بيع الورود ومستلزمات المشاتل.. وصلتُ إلى منعطف ينتهي إلى أطراف السوق؛ وتراءى لي سورة المحيط.. توقفت قليلا وأنا أرى قوما يعتلون، وآخرين يستظلون به.. ولما أيقنت أنهم المتشردون تجدَّدت ابتسامتي، فرحا باهتدائي لضالتي..

استأنفتُ سيري باتجاه جماعة منهم، وشرعت أبحث عن طريقة أفتح بها الحديث معهم.. فوقفتُ غير بعيد عنهم، وأخذت أراقب تصرفاتهم.. كانوا أربعة أشخاص يجتمعون حول طاولة نرد صغيرة.. تتفاوت بنياتهم ما بين سمين ونحيف ومعتدل.. أحدهم يشتم غضبًا، وآخر

يُصدر قهقهات عالية.. يتحدثون بلكنات مختلفة،
ويرتدون ثيابا بالية..

أسدلتُ قبعتي على حاجبيّ مُخَفِّيًا ملامحي قدر
الإمكان، ووضعتُ يديّ في جيبِيّ، ثم اقترب منهم على
مهل ووقفْتُ على رؤوسهم متفرجا على ما يصنعون..
مكثْتُ على تلك الحال لِقُرابة دقيقة كاملة، إلى أن انتبه
إلي أحدهم ورمقني بنظرة خاطفة.. كان شابا نحيفا في
أواخر العشرينات من عمره، أفطس الأنف، ذا بشرة داكنة
وشعر أكرت، كسكان الجنوب الشرقي.. أما الذي كان عن
يمينه فكان كهلا سمينا أبيضًا ذا سحنة أوربية، أصلا
بعينين خضراوين ولحية حمراء كثيفة مهملة يعلوها
شاربٌ لا يقل كثافة.. في حين كان الذي يجلس أمامهما
أصغر سنا، مراهقا أمهقا دون العشرين، ذا شعر طويل
يصل إلى منكبيه.. أما الرابع فلم يسمح لي موقعي برؤية
وجهه، واكتفيْتُ بسماع ضحكاته المتكررة كلما خسر
الآخرون، وكلما راكم ما غَنِمَهُ منهم من نقود..

فجأة، التفّت السمين ذو اللحية الحمراء وفحصني
بنظرة من رأسي إلى قَدَمَيّ.. قبل أن يبتسم وهو يشير
إلى النرد في كفه قائلا:
- أتريد أن تقامر؟

وجمت في مكاني لا أدري ما أقول.. لم أحدد بعدُ
لحظتها ما إن كنت سأصرف على طبيعتي، أم سأمثل
دور المجنون.. فاكتفيت بتحريك رأسي كهلامة على

الرفض، وعاد لينخرط في جو اللعب مع رفاقه.. قبل أن نسمع صراخا حادا، وألثفت لأرى صبية صغيرة يشدها شرطي ضخم من شعرها.. كانت تحاول الإفلات منه بكل ما تملكه من قوة، لكنه كان يجرها بعنف ويصرخ في وجهها شاتما:

- أيتها اللعينة! كم من مرة حذرتكِ من مضايقة السياح؟! .. ألم أنكِ مرارا عن ذلك؟!

ثم صفعها بلا رحمة، ودفعها لتسقط ويرتطم وجهها بالأرض.. فقام أصغر المتشردين الأربعة وهرعَ إليها منفعلا يقول:

- ريم! .. أختي! ..

رفعها عن الأرض وهي تمسك برأسها تن من الألم وتقاوم البكاء.. وتوجّه إليه الشرطي وركّله على كتفه مهددا:

- اللعنة عليكما يا ذرية المتسولين! .. إن رأيتهما تزعج السياح مجددا فلا تلومن إلا نفسك!..

ثم انصرف وهو ينفذ الغبار عن ملابسه، وظللت مشدوها أحرق إلى الفتاة الصهباء التي سالت الدماء من أنفها، وإلى أخيها الذي كتم غيظه في حرقّة بدت على وجهه المُحمَرّ.. إلى أن لمحت خايبة عليها كوب عند الزاوية، وعمدت إليها دون وعي مني..

ملأْتُ الكوب بالماء، وأخذته إليهما.. طلبتُ من الفتى أن يمسك بالكوب فيما توليْتُ غسل أنف الطفلة ووجهها

من الدماء.. كانت الدموع تملأ عينيها العسليتين دون أن تنساب على حدودها المنمّشة، وكنت أنظر إلى حالها دون أن أتوقف عن لعن الشرطي؛ مستهجنًا تصرفه الوحشي..

أعدتُ الكوب إلى مكانه.. وعدت إليهما مستغربًا من بقية المتشردين الذين واصلوا قمارهم دون اكتراث لما وقع بقربهم.. بدا الأمر من سلوكهم وكأن ما حدث سلوك مألوف يقع كل يوم..

أعمى الغضب تفكيري، ونظرتُ إلى الفتى الحانق قائلاً:

- فلتشتكي عليه!.. وسأكون لك شاهداً على فعلته..

لكنه لم يجب، وظل يرمقني بشيء من الاستصغار لشخصي والاستخفاف بكلامي.. سيما وأن ملامحي الملطخة وثيرابي الممزقة جعلتني أبدو أحقر هيئة في السوق كله.. فضجكتُ في نفسي على نفسي، وهممت بالعودة إلى الآخرين.. قبل أن يستوقفني كلامُ الفتاة:

- إن شكوناه فلن يسمح لنا بالتسول في السوق مجدداً!..

ازداد حقيدي عليه، وشرعتُ أتعجب في نفسي مستنكراً.. عن أي قصاص يتحدث الحاكم وسكان الولاية إن كان الشرطي قادراً على الإفلات من العقاب؟! ألا يترتب على فعلته زجر أو تعزير؟!.. لطالما ردّوا على

أسماعنا أن العين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص.. وها هو جرح الفتاة لم يندمل بعد على أنفها!..
أم أن جراح المتشردين لا يكثرثون لأمرها؟!..

ثم سألتها قائلاً:

- ولماذا يمنعكم؟!

ليجيب أحوها متحاذقاً:

- لأنه لا يجوز بكل بساطة! .. أرى أنك جديد هنا..

ثم سكت وهو ينظر إلى ركبتي العاريتين.. وأردف

سائلاً:

- من أي ريف أو قرية أتيت؟!

ترددت للحظة في أمر إجابته بعدما تبين لي أنه شخص سطحي من كلامه، كنت مخيراً بين التعالي عليه وكسب احترامه، وبين التغابي وإظهار السذاجة لاستدراج أطماعه واستغلالها لصالح روايتي.. فاخترتُ الغاية الأخيرة، واختلقتُ قصة تعمدتُ التلعثم وإظهار المسكنة في سردها:

- أجب.. أجل.. أنا من إفران.. ولقد رمتني الأقدار إلى هنا.. ف.. فبعد أن توفي والدي إنْف.. انفرد أخي الأكبر بالميراث، و.. وحجر عليه مدعياً أنني سفيه مجنون، فقط لأنني أدخلتُ في نوبات من الصرع من حين لآخر.. ل.. لكن عمي كلف محامياً لاستردا.. داد.. حقي المغصوب! ..

فحدجاني بنظرة يملؤها الشك.. وأبعد الأخ أخته عن
حضنه وسألني:

- وما اسمك؟!.. ما مهنتك؟!

فأجبت به بحقيقة عملي القديم:

- اس.. اسمي "ليث بنعمران".. عملت كجندي
لفترة قبل أن أترك الجيش منذ عشر سنوات..

ولكي أقنعه بصحة ما أقول؛ مددتُ يدي إلى جيبِي
وأخرجتُ بطاقة انخراطي في الجيش التي تعمدتُ
جليها معي تحسباً لموقف مماثل، وسلمتها له قائلاً:
- تفضل!.. الق نظرة!..

فخطفها من يدي وراح يقرأ معلوماتها.. قبل أن تميل
أخته الصهباء على أذنه وتهمس له بما تمكنتُ من
قراءته في حركات شفاهها:
- أرى أنه قد قتل أحدهم فأصيب بالجنون! ..

فابتسم الفتى وأبعدَها عن أذنه وهو يعيد لي
بطاقتي سائلاً:

- وأين تسكن الآن؟!

أجبتُه مُظهراً الحيرة والقلق:

- لقد وصلتُ اليوم.. ولا مأوى لي..

فارتسمت على شفتيه ابتسامة انتهازية وقال وهو
يشير إلى جماعته:

- إن أصدقائي يبيتون في مقهى مجاور مقابل مئة درهم لليلة.. لكن، إن لم يكن معك مال فسأسدي إليك معروفا وسأخذك لتقيم معنا في بيت العائلة حتى تجد عملا، أو يتم قبولك للإستفادة من خدمات المأوى البلدي..

لأسأله مستفسرا:

- وأين يقع هذا المأوى؟ وما شروط قبولهم لي؟..

وتجيبَ أخته قائلة:

- إنه خلف محطة الهايبرلوب.. لكنَّ له نظاما صارما لا تحبذه الأغلبية! .. لذلك يفضل هؤلاء أن يناموا في مقاهي المبيت أو في الشوارع على أن يتقيدوا بنظام يحد من حرياتهم..

أذكر أن الساعة كانت تشير إلى العاشرة والنصف لما دخلنا إلى بيت "ريم" وشقيقها "شفيق" .. لقد انتهى بي تفكيري إلى قبول عرضهم لما رأيت في الأمر فرصة لا يجب تفويتها.. فرصة ستمكنني من أخذ فكرة عن حياة المتسولين وإدراجها في عدد لا بأس به من الصفحات.. الشكر كله لفكرة الميراث الزائفة التي خطرت علي، فلولاها لما فكر شفيق في استضافتي.. ما جعلني متأكدا من ذلك، أنه لم يتوقف عن سؤالي -طيلة الساعات التي تلت تعرفي- عليه عن حقي في الميراث، وعن قيمته، وعن كفاءة المحامي الذي سيتولى استعادته..

كانوا يقطنون سطح عمارة تتألف من سبع طوابق.. وكان السطح على مستوى لا بأس به من الترتيب والتزيين، مكونا من أربع غرف واسعة متفرقة إلى جانب مطبخ وحمام متجاورين.. أما بقية السطح المكشوفة للسماء فكانت مبلطة بالزليج التقليدي الملون، تتخللها أصص زهور وورود، وحبال لنشر الغسيل في المنتصف.. إضافة إلى الكنبه البالية الطويلة التي جلسنا عليها فور دخولنا.. أذكر أنها كانت على الرغم من اهترائها أوثَر من السرير الذي أنام عليه، ولعل ذلك ما جعلني أستلقي عليها دون تحفظ وأنا أستمتع بتيار الهواء المنعش الذي يجلب معه روائح الزهور التي تملأ المكان.. حيث ظللت على تلك الحال إلى أن جاء شفيق بمائدة بين يديه ووضعها أمامي، فاستويْتُ جالسا وقد تذكرت دور الساذج الذي علي أن أمثله أمامه، ثم جاءت أخته

بصينية عليها إبريق وكؤوس.. قبل أن يخرج من المطبخ
رجل طويل نحيف ذو وجه حليق بارز العظام، وشعر
أسود طويل كشعر شفيق، يرتدي نظارات طبية وفي
يده صحن كبير من الكعك..

وضع الرجل ما في يده تزامنا مع ريم، وأقبل علي
مصافحا بوجه بشوش:

- مرحبا بك.. لقد شَرَّفَت بيتنا..

نهضت من مكاني وحييته مطأطا رأسي:

- أهلا سيدي.. الشرف لي..

ثم جلسْتُ متعمدا تربيع يديّ كغُرَّ خجول.. وانبرت
ريم للحديث مُعَرِّفَةً بي:

- اسمه ليث يا أبي.. لقد تقطعت به السبل في

مدينتنا وارتأينا أن نُبقِيه معنا إلى حين..

ثم قدمت لي أباهما مبتسمة:

- وهذا أبي يا ليث.. اسمه خالد..

فابتسمت في وجهه قائلا:

- سُررتُ بمعرفتك سيد خالد..

وردَّ بابتسامة مماثلة:

- وأنا أيضا سيد ليث..

ثم أخرج من جيب قميصه قماشاً وشرع في تنظيف
زجاج نظاراته سائلا:

- لا يُعَدُّ اسمك مألوفاً في البلاد! .. هل أنت من العائلات المشرقية التي وفدت إلى المغرب بعد الحرب الكبيرة؟!..

فأجبتَه ضاحكاً وأنا أنظر إلى الصغيرة التي كانت تُنصت باهتمام:

- كلا.. أنا من أسرة مغربية عريقة، كل ما في الأمر أن أبي كان عاشقاً للأدب الجاهلي؛ كان يريد أن يسميني "عُقَاب" من حسن حظي أن أمي تدخلت وأقنعتَه بالعدول عن ذلك؛ فسماني ليثاً..

ضحك الأب وأبناؤه من قلبي.. وعقَّب قائلاً:

- وما الفرق يا رجل؟!.. كلاهما حيوان!..

فانفجرنا ضحكاً.. ثم أضافت ريم قائلة:

- أتعلم يا ليث أسماء رفاق أخي الذين كانوا معه في السوق؟!..

فحركتُ رأسي نافياً.. وتابعتُ كلامها:

- الأصلع بريطاني واسمه "وولف" أي الذئب، والأسمر النحيف اسمه "حمزة" ومعناه الأسد، والآخر سوري الأصل اسمه "شاهين" ومعناه الصقر.. أقترح أن تنضم إليهم لتشكّلوا حديقة حيوانات..

ثم تعالت ضحكاتنا مجدداً.. وأخذتُ أتعجبُ من تلك العائلة العجيبة فيما شرع الأب في صب الشاي وتوزيع الكعك.. لقد توقعتُ أن أجد جواً من البؤس والنكد وأن

أرى شيئاً من الكآبة والملل، فإذا بي أجدها أسرة كسائر
الأسر.. لقد أخطأتُ عندما عَمَّمْتُ الصورة السوداء التي
يُظهرها هؤلاء المتسولون وحكمتُ بها على جميعهم..
نعم، إنهم يتقنون إظهار معالم البؤس على الطرقات،
لكنهم أيضا يعيشون لحظات السعادة كبقية العائلات..

انتصف الليل، ودخل كل منهم إلى غرفته لينام..
فيما فضلتُ النوم على الكنبه المهترئة المريحة
واستقبال السماء.. لقد أصروا كثيرا على أن أنام في
غرفة من غرفهم، لكنني رفضت ولوجها بهيأتي المتسخة
تقديرًا لهم.. لينزلوا عند رغبتني، ويجلب لي شفيق
بطانية من أجود ما يكون.. بطانية عَجَلت بي ليونتها
إلى الارتخاء والدخول في نوم عميق..

لطالما كان النوم أكثر شيء أحبته.. كلما أحببت
شيئا إلا وملئتُ منه، إلا النوم، كلما استغرقت فيه ازددتُ
له عشقا، حقا إنه اللاشيء الذي يهزم كل شيء.. إلا أن
شيئا آخر اقترح زُقادي، وبعر سكون أحلامي.. لقد
كانت أصوات مزعجة تأتي من شارع الحي.. فاستيقظتُ
وتركتُ مرقي متضايقا، وقمتُ بإطلالة من شُرْفَةِ
السطح.. لأرى مشهدا غريبا عجيبا!..

رأيت رجلا يمسك قطا من ذيله، يدور حول نفسه
مقهقها وهو يَلَوُّخُ بالقط في جميع الاتجاهات.. بينما
يقفز أمامه كلب لا يكف عن النباح.. وبعد لحظات يسيرة
كف القط عن موائه الحاد، وأفلتته الرجل من يده ليَرمي
به بعيدا ويُدخل المسكين في مغامرة جديدة أمام الكلب
الذي شرع في مطاردته.. فضحكُ رغم ما أشعرُ به من
نعاس، وابتعد الرجل الثمل عن الشارع إلى شجرة على
الرصيف وشرع يتبول على جذعها، قبل أن يسقط على
بوله ويستسلم لضعفه بعد محاولات فاشلة للنهوض..

فَتَحَوَّلَ ضَحْكِ إِلَى قَهَقَهَاتٍ، وَهَمَمْتُ بِالْعُودَةِ إِلَى
مَرْقَدِي.. غَيْرَ أَنَّنِي أَجَلْتُ ذَلِكَ حِينَ رَأَيْتُ شَفِيقَ يَخْرُجُ
مِنْ غُرْفَتِهِ مَقْبَلًا نَحْوِي وَيَبِيدُهُ سِجَارَةٌ..
فَاتَكَأُ بِمَرْفَاقِهِ عَلَى حَافَةِ الشَّرْفَةِ وَمَدَّ لِي السِّجَارَةَ
قَائِلًا:

- تُدَخِّنْ؟

أَجَبْتُهُ مَبْتَسِمًا:

- لَا.. شُكْرًا!..

ثُمَّ أَشْعَلَ سِجَارَتَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى السَّكَرَانِ الْغَارِقِ
فِي بُولِهِ ضَاحِكًا.. وَقَالَ:

- ذَلِكَ الْأَحْمَقُ لَا يَسْتَغْنِي عَنِ النَّبِيذِ، دَائِمًا مَا
يَلْقَوْنَ الْقَبْضَ عَلَيْهِ وَيَجْلِدُونَهُ.. لَكِنَّهُ لَا يَلْبِثُ أَنْ
يَعُودَ إِلَى بَلَّيَّتِهِ..

أَثَارَ كَلَامِهِ حَيْرَتِي.. ثُمَّ سَأَلْتُهُ قَائِلًا:

- وَمَنْ أَيْنَ لَهُ بِالنَّبِيذِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَقَانُونُ الْوَلَايَةِ
يُجَزِّمُ بِيَعِهِ؟

فَفَهَّقَهُ ضَاحِكًا.. وَأَجَابَ:

- إِنْ مَنَعَ بَيْعَ الْخُمُورِ لَا يَعْنِي بِالضَّرُورَةِ انْعِدَامُهَا يَا
صَاحِبَ!..

ثُمَّ أَرْدَفَ وَهُوَ يَخْفِضُ صَوْتَهُ:

- هُنَاكَ مَنْ يَقُومُ بِتَصْنِيعِ الْخُمُورِ وَبِيعِهَا!..
- وَاعْجَبًا!.. وَلِمَاذَا لَا تُغْلِقُ السُّلْطَاتُ مَصَانِعَهُمْ
وَحَانَاتَهُمْ؟

- إنهم لا يبيعونه في حانات قارة، بل في سيارات
يتم تغييرها بين الحين والآخر.. إنهم يغيرون
أساليبهم باستمرار مما لا يسمح للسلطات
بكشفهم..

ابتسمت لسماعي هذه المعلومات التي قد تعطي
قيمة إضافية لروايتي.. وتابع شفيق كلامه:

- أخبرني صديقي "وولف" أن هناك حانات
وكازينوهات وأوكار دعارة سرية بالمدينة..

- لعلها إشاعات يا صاح!..

- لا أظن ذلك يا ليث.. فكلام الأصلع "وولف" دائما
ما يكون صحيحا، وتوقعاته دائما ما تكون
صائبة!..

فحركت رأسي مستخفا بكلامه متناسيا سذاجتي
الزائفة، وتعمدت استفزازه بسؤال رغبة في إفراغ ما
بجعبته من معلومات:

- بالله عليك يا شفيق!.. من أين لشخص يقضي
معظم وقته في القمار بهذه المعلومات التي
غابت عن رجال الشرطة؟..

فتوقف عن التدخين وهو يحدق في الفراغ.. ثم
أجاب:

- لا أحد ينكر أن ذلك الإيرلندي قمار متشرد.. لكن
ما لا تعلمه يا ليث، أن "وولف" هو من اختار
حياة التشرد وليس العكس..

- لم أفهم؟
- لقد جاء إلى المغرب بعد الحرب الكبيرة التي قلبت موازين القوى العالمية ودمرت دولا كثيرة، والتي فقد على إثرها زوجته وأولاده وفروعا عديدة من شركته التي أسسها في الشرق الأوسط.. فقام بتصفية الشركة واختار أن يعيش في المغرب كبوهيمي متشرد!
- تأسفتُ لما وقع للإيرلندي.. لكنني رغبتُ في المزيد من المعلومات، وقلتُ له:
- لكنَّ ما وقع لصديقك لا يعني بالضرورة أن كلامه صائب!..
- فردَّ شفيق قائلا:
- أنا لا أصدق كلامه بناء على ما حدث له.. بل لأنه أسرلي ذات يوم أنه رجل استخبارات سابق!..
- ثم ابتسمَ بثقة.. وأعرضتُ عن ترهاته مغيرا الموضوع:
- دعنا من الإيرلندي الآن، وأخبرني عن نفسك قليلا..
- فصَحَّكَ قليلا، وسكت وهو ينفث الدخان ويحدق إلي مبتسما.. لأستغربَ صمته وأستدرك قائلا:
- إن كنتَ لا تريد فلا داعي لذلك.. أعتذر على الفضول!..

فنزح السيجارة من فمه على الفور وقال:

- لا.. لا.. لا مانع لدي!.. إنما ضحكْتُ على تصرفاتك يا ليث!

- عن أي تصرفات تتحدث؟!

- عندما قابلتك للوهلة الأولى بدوتَ غرا مسكينا ساذجا تأتاءً.. والآن تبدو..

- أبداً كماذا؟..

- إنك لا تبدو كالشخص الذي كنت عليه صباحاً يا ليث!.. هذا ما وددتُ قوله..

سكتُ لهنيهةً بحثاً عن تبرير من شأنه أن ينسف استغرابه كيلا يتحول إلا شكوك.. ثم قلت له ضاحكاً:

- لعله من تأثير الصرع الذي أعانيه!.. عدا عن ذلك أنا كائن ليلي..

فابتسم وقد أظهرت ملامحه تعاطفاً.. ثم شرع في الحديث عن نفسه وبوادر الحزن والقهر تلوح في عينيه:

- حسناً يا ليث سأحدثك عن نفسي.. اسمي شفيق الصبار وعمري تسع عشرة سنة، أنا شقيق ريم وابن خالد كما تعلم.. جئتُ إلى هذا العالم اللعين لأكتشف أنني ابن عائلة لها باع طويل في امتهان التسول.. يجمعون المال ويكدسونه في الأبناك ثم يرحلون عن الحياة دون أن يستمتعوا بما جمعوه!..

ثم توقف عن الحديث؛ ليُشعل سيجارة أخرى.. قبل أن يتابع حديثه:

- لقد تغلغلت الذلة والمهانة في دمائهم.. وصار التسول هواء حياتهم.. أبي يتسول نهارا في الأسواق، وليلا في الحافلات.. أمي تستجدي المصلين تارة، وتارة أخرى تتسول أمام المستشفيات..

شعرتُ بغصة وقد حزت كلماته في نفسي.. فقاطعتُه قائلا:

- حسبك يا شفيق!.. تلك أسراركم الشخصية!..

ليبتسمَ بمرارة ويقول:

- أسرار؟!.. أي أسرار يا ليث؟!.. الحي كله يعرف ذلك!.. بل السوق كله يعرف ذلك!.. الكل ينعتني بالمتسول ابن المتسول.. حتى وإن تمردتُ ورفضتُ عائلتي، فسأبقى ابن المتسولين شئتُ أم أبيت.. هل تعلم يا ليث ما حل بأختي الكبرى التي تمردتُ على العائلة ورفضتُ امتهان التسول؟!!

سكتُ وأنا أنظر إلى بريق عينيه المغرورقتين!.. واستأنف والبة تملأ صوته:

- لقد ماتت يا ليث!.. لقد انتحرت!..

وجمشتُ في مكاني مصدوما.. وأطرقْتُ رأسي متأسفا، نادما على سؤاله.. إلى أن تابع قائلا:

- لم تتحمل المسكينة أن ينعته زملؤها في المدرسة بلقب تكرهه!.. لقد كانت طالبة مجتهدة متفوقة، لكنها كانت بالنسبة إليهم مجرد متسولة!.. كان لها حلم وطموح يحفزها، لكن المجتمع كان دوما ما يكسرها!.. كانت دوما ما تقاوم أملا في غد أفضل، لكن العكس هو الذي حصل!.. فبعد أن تقدمت بطلب لولوج كلية الطب، تم رفض ملفها رغما عن تفوقها ونقطةها المرتفعة!.. وعندما استفسرت عن السبب؛ قاموا بإهانتها قائلين: "إنه لا مكان لك هنا، مكانك بين المتسولين!".. لم تستحمل المسكينة!.. فعادت إلى البيت ودخلت غرفتها وانزوت، لنكتشف بعد ساعات أنها قطعت شرايينها وانتحرت!..

توقف عن الحديث.. وسالت الدموع من عينيه.. ثم استأنف:

- الأسوأ من ذلك أن أُمي لم تتحمل فراقها!.. عَجَزت عن الكلام ليومين، ثم ماتت والتحقّت بها!.. لقد تركتنا ورحلتا!..

غص حلقي مجددا وبلغ تأثري مداه.. ثم اقتربْتُ منه وربْتُ على كتفه مواسيا:

- فليرحمهما الله!.. هم السابقون ونحن اللاحقون!..

فمسح دموعه بِكُمِّه.. وابتسم يقول:

- لكنني لا أخشى على ريم مما تعرضت له أختها الكبرى.. إنها فتاة من حديد رغم سنها الصغير.. إنها تلميذة متفوقة تكره التسول كأختها.. لكنها تعلمت ألا تكثر للجمع.. بل صارت تتسول عمدا نكاية في زملاء فصلها.. إنها تتحداهم وتتعمد أن تتسول أمامهم.. ليعلموا أنها لا تعطي قيمة لأرائهم.. إنها دوما ما تقول "ما دامت أُمي راضية عني فلتذهب بقية العالم إلى الجحيم!"..

ابتسمت ضاحكا من قولة ريم، وربّت شفيق على كتفي قائلا:

- أريدك أن تسدي لي خدمة يا ليث!..

فابدت استعدادا لتنفيذ طلبه، وقلت له:

- تفضل يا شفيق!.. يسرني ذلك إن كان بمقدوري!..

- غدا سأكون منشغلا طوال اليوم.. أطلب منك أن تُبقي عينيّك على ريم؛ إنني أخاف أن تنتقم من الشرطي الذي ضربها..

- ريم الصغيرة ستنتقم؟!.. كيف؟!

أجاب مبتسما:

- لا يغرنك صغر سنّها، إنها فتاة جسورة ذات دهاء شديد!.. لا أدري كيف ستنتقم منه، لكنها لن تهدأ حتى تثار لنفسها..

- حسنا سأفعل!.. كن مطمئنا!..

ثم ابتعد عن الشرفة وتوجه إلى غرفته وهو يقول:
- ستخرجُ ريم من مدرسة الحي في تمام العاشرة،
وستمرُّ إلى السوق لبيع السجائر.. بعد ذلك،
ستقضي فترة ما بعد الزوال عند ملتقى الطرق
لكي تبيع المناديل الورقية..

فسألته مستغرباً:

- ومتى تتسول ريم المال إذن؟!
ليضحك من أعماق قلبه.. ويلتفت قائلاً:
- إنها لا تتسول المال يا ليث!..
- وماذا إذن؟!
- إنها لا تطلب من الناس المال، بل تطلبُ منهم
الشراء..

صحوْتُ مبكراً وفتحتُ عينيَّ على الغيوم التي
تصدَّعت بخيوط الشمس الأولى.. والتفتُّ إلى حافة
الشرفة حيث كانت ثلة من العصافير تزقزق إيدانا بيوم
جميل.. ثم استويْتُ جالسا، وأخذتُ أفرك عيني متثابرا..
ولمَّا هممتُ بارتداء نعليّ للذهاب إلى الحمام، فوجئتُ
بورقة صغيرة على فردتي اليمنى.. فانحنيتُ والتقطتها..
ثم فتحتها وشرعتُ في قراءة ما كُتبَ عليها: "لقد
غادرنا باكرا، لم نشأ إزعاجك.. تصرف وكأنك في بيتك..
وإن كنت من هواة المطالعة والقراءة فستجد في
غرفتي خزانة من خمسمائة كتاب.. ريم..".

ابتسمتُ ضاحكا مني، وشعرتُ بالخرج حين
اكتشفتُ أنني آخر من برح فراشه.. بيد أنني واسيتُ
نفسي متعللا بظروف هذه العائلة العجيبة التي لا تشبه
بقية العائلات.. فطويْتُ الورقة كما كانت، واتجهتُ
صوب الحمام.. وبمجرد أن فتحتُ بابه؛ لفحني عبير زكي
شعرتُ باستنشاقه أنني في مصنع مسك لا في مكان
يتخلص فيه الناس من فضلاتهم.. ونظرتُ إلى بلاط
أرضيته وجدارنه التي عكست صورتي صفاء.. لقد
دخلتُ مئات الحمامات، لكن حمام هذه العائلة -بلا شك-
أفضلها نقاء..

خرجتُ من حمامهم الذي بدا أفضل حالا من غرفة نومي، ثم دخلتُ إلى المطبخ الذي كان أفضل تجهيزا من مطبخ أمي.. فوجدتُ به إفطار شهيا بانتظاري.. بيض وجبن ومربى وعسل وزيت زيتون.. شاي بالنعناع وقهوة وسكر وعصير ليمون.. فأكلتُ وشربت القليل من كل شيء متلذذا بوجيتي.. وقصدتُ غرفة ريم رغبة في رواية تُشبعُ تُهمتي..

وكما لم يكن متوقعا، لم أجد على رفوفها المديدة الطويلة ما يلأئم رغبتني.. كانت أغلبها مؤلفات في التاريخ والفلسفة وعلم السياسة والاقتصاد.. فجلستُ على سريرها الصغير حائرا لا أتوقف عن التفكير.. من أين لها بهذا الذوق وهي في هذا العمر الصغير؟!.. لقد توقعتُ أن أجد ألوانا زاهية ودمى وقصصا للأطفال، فإذا بي أمام جدران زرقاء تتخللها صور لشخصيات تاريخية عسكرية!.. وُريقاتٌ لاصقة عليها كلمات وعبارات تحفيزية!.. أثاث وثياب بألوان قاتمة لا صلة لها بألوان الإناث الزهرية!.. أهو موثٌ أمها وأختها قد سبب لها صدمة نفسية؟!.. أم هو ذكاؤها قد سبق مرحلتها العمرية؟!.. عندئذ تذكرتُ ما قاله أخوها عن شدة دهائها، وما طلبه مني بخصوص مراقبتها.. فخرجتُ من غرفتها مهرولا، وهرعتُ نحو الباب مغادرا..

اهتديتُ إلى المدرسة أخيراً.. ورحتُ أتأمل أبنيتها العالية البديعة، منصتاً لأصوات التلاميذ التي تعلو حيناً وتخفتُ حيناً.. تساءلتُ عن النظام الذي باتت تعتمده وزارة التعليم في الأسلاك الأولى من التدريس.. لا شك أن النظام الحديث لهذه الولاية قد أتى هو الآخر بشيء جديد.. سيما وأن الحرب الكبيرة التي أعادت دولا- نستورد منها- مئة سنة إلى الوراء؛ قد حثمت على الدولة توجيه الأطفال إلى تخصصاتهم المستقبلية ابتداء من سن الرابعة.. وذلك تعجيلاً بتكوين أطر عليا وعقول نابغة تغنيانا عن الاعتماد على الغير مستقبلاً.. الجدير بالذكر أن هذه السنة -فقط- شهدتُ تخرُّج عشرة آلاف إطار متخصص في التقانة الحيوية، والتي جاءت ثمرةً للإجراءات الاستعجالية التي اتخذتها الحكومة إثر أزمة القمح.. إنها تخشى أن يتأزَّم البلد الذي يزودنا بالقمح والقطاني كما حدث مع سابقه؛ فينقرض الخبز في الأسواق المغربية مجدداً.. لذلك صار لزاماً علينا أن نُؤمِّن قمحنا؛ إن أردنا حقاً أن نضمن خبزنا..

قرعتِ المدرسة أجراسها وفتحت أبوابها، وضجت بالحركة والجلبة أركانها.. وفي غضون ثوان قليلة صار التلاميذ خارجها وهم من كل باب ينسلون.. فطفقتُ أبحث عن ريم بينهم وهم يركضون.. إلى أن ظهرت أخيراً بين الزحام، وخرجت من الباب تمشي بهدوء وانتظام.. فاقتربتُ منها دون أن تبصرني، وضربتُ على محفظتها ضاحكا أقول:

- ما هذه الحقيبة الثقيلة التي تذكرني بمطلع
القرن يا ريم؟!

فالتفتت في فزع.. قبل أن تبتسم لرؤيتي وهي
تقول:

- هذا أنت يا ليث!..

ثم أردفت:

- وما بها حقيبتني؟!.. إنها من إصدارات السنة
الماضية..

أجبتها موضحا:

- أنا لا أتحدث عن شكلها يا ريم.. بل استغربت
من امتلائها مقارنة بمحافظ زملائك!

سكتت قليلا.. ثم ردّت والرصانة تملأ نظرتها
ولهجتها:

- آآاه.. إنهم يكتفون بإحضار منصات الهولوغرام
فقط.. أما أنا فأحمل معي علب السجائر
والمناديل أيضا..

فتأثرت نادما على سؤالي البريء الذي أصاب شيئا
من كبريائها.. ثم تعمدت الابتسام قائلا:

- إن جيلكم لمحظوظ!.. في أيامنا كنا ملزمين
بإحضار الكتب والدفاتر والأقلام يوميا، أما الآن
صار كل شيء يتم عبر الأثير!..

لاحظت ريم أن بعض التلاميذ يسخرون من ملابسها
بنظراتهم؛ فأمسكت بيدي وابتعدت بنا منعطفة نحو
الشارع المؤدي إلى السوق وهي تقول:
- أجل.. لقد أخبرني أبي عن أحوال الدراسة في
ذلك العهد..

لأتوجه إليها بالسؤال قائلاً:

- كم عمرك يا ريم؟!

أجابت وهي تنظر إلي:

- إحدى عشرة سنة..

وسألت بدورها:

- وأنت يا ليث؟

- ثلاثة وثلاثون..

- إذن أنت أصغر من أبي بتسع سنوات!..

ثم أردفت:

- وما كان تخصصك الدراسي؟!..

أجبته مسترجعا مسار دراستي:

- لقد تمنى أبي أن أكون طبيبا، لكنني كنت شغوفا

بالأدب.. فانخرطت في شعبة الفلسفة، وتخرجت

منها بامتياز.. ثم انخرطت في الجيش لسنتين،

قبل أن أتركه لأتفرغ لأعمال حرة..

- ممم.. هكذا إذن!..

- وأنت ما تخصصك؟

فابتسمت وضربت بكفها على محفظتها الممتلئة
تقول:

- التجارة.. إنها شغفي وحياتي!..
- عندئذٍ سألتها عما راج في خاطري سلفاً:
- ألهذا السبب تمتلئ خزانتك بمؤلفات علم
الإقتصاد؟!

- أجابت بتحفظ ينم عن رويّة:
- نوعاً ما..
- مممم.. وهل قرأت كل تلك الكتب؟!
- فتوقفت عن السير وهي ترمقني باستغراب.. قبل أن
تستأنف وتجيب ضاحكة:
- كلا يا رجل!.. لست غبية لأفعل ذلك!..
- وما الضير في ذلك يا ريم؟
- إن كنتَ تقرأ دون تمحيص لما تقرأه، فلن تشحن
عقلك بالفائدة فقط بل بالزبالة أيضاً!.. عدا عن
ذلك، أنا أقرأ فقط ما سيعود علي بالنفع
مستقبلاً..

في تلك اللحظة تأكدت أنني أمام طفلة ذكية،
وأدركت أن مراقبتها ستكون أمراً مرهقاً لن يمنعها من
الانتقام من الشرطي إن هي صممت على ذلك.. خصوصاً
وأن الأطفال عادة ما يكونون على درجة كبيرة من
اليقظة والاحتياط.. لذلك قررتُ مصارحتها بنيتي

وتحذيرها من عواقب ما تنوي القيام به لعلها ترتدع،
وأوقفتها قائلاً:

- ريم..
- نَعَمْ ليث!..
- لقد أخبرني أخوك عن احتمال ثأرك من الشرطي الذي ضربك، وطلب مني أن أمنعك من القيام بذلك.. وأنا لست في مزاج يسمح لي بالركض وراءك بين أرجاء السوق؛ لذلك أخبرك أن عقوبة الاعتداء على شرطي تُعتبر جناية يعاقب عليها القانون بشدة..

أمسكت ريم بحمالات محفظتها، ودارت عيناها في محجريهما وهي تعض لسانها مبتسمة.. ثم نظّقت قائلة:

- لكنني انتقمْتُ فعلاً يا ليث!..

أخرجت يدي من جيبي منفعل لا أصدّق:

- مستحييييل!

فردت على الفور والإباء يملأ عينيها:

- بلى لقد انتقمْتُ منه باكراً قبل زهابي إلى المدرسة وأشفيتُ غليلي!.. دهنت عتبة بيته بالصابون وكسرت زجاج سيارته الأمامي؛ فأطلقت جرس الإنذار واختبأت، وهرع الأحمق إلى الخارج؛ لتنزلق قدماه عن العتبة ويسقط برأسه على الأرض متألماً كما تألّمت..

أمسكْتُ رأسي من شدة الهول، وجذبتها من حمالة
محفظتها موبخا:

- أيتها الجنية!.. ماذا لو رصدتِ الكاميرات؟!..
ماذا لو تضاعفتِ آلامه ومرض أو مات؟!.. ألم
تفكري بعائلته وأولاده؟!

فأجابت وقد زادت لهجتها حدة واحمرت عيناها
العسليتان غضبا وشراسة:

- لا تتعاطف مع عدوك أبدا!.. اقض عليه أولا، ثم
ابكِ عليه بعد ذلك!.. فليذهب هو وعائلته إلى
الجحيم!..

أفلتُها من يدي وقد خابت ظنوني.. ثم قلتُ لها
متأسفاً على حالها:

- عندما رأيتُ وجهك البريء؛ ظننتُ أنكِ مسالمة..
لكنكِ خبيثٌ ظني!..

وجاء ردها كالتالي:

- أن تكون مسالما لا يعني بالضرورة أن تكون
نعجة.. أما ظنونك فاحتفظ بها! إنها حتما لن
تنفعني بشيء!..

ثم أكملتُ طريقها، فيما تسمرتُ في مكاني متعجبا
من هذه الصغيرة اللعينة التي يبدو أنها لن تتردد أبدا في
إرسال جميع من يعترض طريقها إلى الجحيم!

قصدت البيتَ رغبةً في رؤيةِ الحبيبين..
ووجدتُ "ديدي" عند الباب منشغلا بسقي زهور
الياسمين.. فألقيتُ عليه التحيةَ مستعجلا وهممتُ
بالدخول.. إلا أنه قفز بخفةٍ وحال بيني وبين الباب
معترضا بيده وهو يُحذق إلي.. فنزعتُ القبعة عن رأسي
حتى يتعرف علي، وعرفتُ بنفسِي ضاحكا:

- هذا أنا يا ديدي!.. ليث ابن مالكِتك هاجر..

فأبعد رأسه قليلا، وأخذ ينظر إلى ثيابي.. ثم ضحك
وقال بصوت يشبه صرير الباب:

- سروالك ممزق يا سيدي!.. ونعلُك مضحك قديم
الطراز!..

نظرتُ إلى رجليه.. لأجدَ شبشبَ أُمي في قدميه،
وأُردَّ عليه ساخرا:

- في كل الأحوال حذائي أفضل من شبشب
العجائز الذي ترتديه!..

فأطرق رأسه ناظرا إلى قدميه، ثم عاد إلى التحديق
بي، وأخرج لسانه ساخرا كما يفعل أبي..
لأضحك منه قائلا:

- أرى أن أبي قد علّمك عادات سيئة يا ديدي!..
لكن، أعدك بأنني سأعلّمك عادات جيدة مستقبلا،
وسأجد لك صوتا أجمل من صوتك العجيب
هذا!..

دلفتُ إلى المنزل وأنفي يسبقني إلى المطبخ متعقبا
رائحة السمك المشوي.. كانت أُمي حينها منشغلة بعصر
الليمون في هدوء؛ قبل أن أرتمي عليها مقبلاً رأسها:
- أُمَممااااا!!..

اهتزّت من مكانها هلعاً!.. وابتعدتُ هارباً من ردة
فعلها التي جاءت على شكل ليمونة مقذوفة كادت أن
تصيب وجهي.. ثم التقطت أنفاسها وقالت:
- لقد أرعبتني!.. أين كنت؟!.. ثم ما هذه الأسماك
التي ترتديها أيها المهرج الأحمر؟

نظرتُ إلى الليمونة التي انقسمت على الحائط وسال
ماؤها.. ثم أزلتها عن الأرض ورميتها في وعاء القمامة
قائلاً:

- ما زلتِ تتمتعين بذراع قوية يا أُمي!..
- دعك الآن من ذراعي ولا تحاول أن تغيّر
الموضوع!.. أين كنت بهندام المشردين هذا؟!

تهزّبتُ من الجواب، وعمدتُ إلى الثلاجة وفتحتها
بعد أن قرقرت بطني من الجوع.. ثم أخذتُ موزة
لأكلها.. لكنّ أُمي الحنونة خطفتها من يدي بانفعال تقول:
- لن تضع شيئاً في بطنك حتى تُجيبني!..

فأجبتها على الفور:

- كنتُ في ضيافة عائلة!..

ازداد انفعالها وقد احمر وجهها:

- استقبلوك بهذا الهندام؟!

- نعم.. إنها عائلة طيبة متفهمة و...

فقاطعت كلامي وأمسكت بساعدي تجرّني إلى البهو.. قبل أن تأمرني بالجلوس على الكنبه وتجلس إلى جوارى قائلة:

- علينا أن نتكلم يا بني!
- بخصوص ماذا يا أمي؟!
- بخصوص تصرفاتك التي ما عادت تعجبني!..
- لا أعلم عماذا تتحدثين!..

ثم حدتني بنظرة شزاء لا حنان فيها وقالت:
- لقد اتصلت بي مريم وأخبرتني أنك قد طلقته، وبأنك قد قمت ببيع متجرك قبل ذلك!.. لماذا أخفيت ذلك عني؟!.. ما الذي يحصل معك يا ليث؟!..

ابتسمت ضاحكا.. وقلت:

- الآن وبعدت أن اكتشفت مريم الحقيقة صرّث أنا المذنب!..
- ماذا تقصد؟
- سأخبرك بما حصل واحكمي بنفسك!..
- تكلم!..
- لقد رغبت في كتابة رواية عن المشردين والمجانين.. وذلك يتطلب مني أن أتقرب منهم وأصادق بعضهم، وكما لا يخفى عليك، هاتان العينتان من الناس نادرتان بإفران.. لذلك قررت

أن أبيع متجري وأدبّر خطة للتحرّر من رابط
الزواج الذي لن تُمكنني مسؤولياته من الانغماس
كلياً في كتابة رواية من ذلك النوع، وأن أعود
إلى هنا حيث يمكنني إيجادهم بسهولة..
فتعمدتُ إحراق المتجر وتظاهرتُ بالجنون!..

استشاطت أُمي غضبا وقاطعتني مجدداً:

- أحرقتَ المتجر وادعيتُ الجنون وطلقتَ مريم؛
فقط لكي تكتب رواية عن المجانين؟!.. إنك حقاً
لَمجنون!.. لقد أغدقتُ عليك بالحنان ودلّثُك
زيادة عن اللزوم حتى صرتَ أنانياً عديم
الإحساس بمن حولك!.. كيف أمكنك أن تتخلّى
عن زوجة جميلة مثقفة مثلها؟!..
- أنا لم أطلقها يا أُمي!.. لقد جاءت برفقة أمها
ومحاميها بِنِيّة الطلاق.. أصرّت أمها على
الانفصال، لكن مريم لم تكن مُصرّة على البقاء،
لقد اكتفّت بالبقاء، وأنا كما تعلمين يا أُمي لا
أحب الجبناء!..

سكتت أُمي وكأنها أُفجّمت.. لكنها على الرغم من
ذلك كابرّت:

- لقد تسبّبت في ضياع أشياء قيّمة من أجل
شيء تافه يا ليث!..

- ربما.. لكنني أفضّل أن أحقق شيئاً أحبه ولو كان
تافهاً، على أن أتمسك بشيء لا أحبه ولو كان
قيماً.. هكذا أنا يا أماه!..

في تلك اللحظة خرج أبي من غرفته متوكئاً على
عصاه، وما إن رأيته حتى ضحك عالياً وقال ساخراً
كالمعتاد:

- اوووه!.. لم أكن أعلم أن في بيتنا ملجأً
للمشردين!.. فلتقومى يا هاجر ولتقدّمي لشبيه
القراصنة هذا حساء ساخناً..

عندئذ قامت أمي من مكانها وأخبرت أبي عما لا
يَعْلَمُه:

- هل تعلم يا عباس أن ابنك باع متجره وطلق
زوجته لكي يتمكن من مرافقة المجانين ويكتب
قصة عنهم؟!

ليتخلى أبي عن ضحكته ويرفع عصاه عن الأرض
متظاهراً بالاندهاش:
- حقاً؟!

أجبتُه مصححاً قول أمي:
- كلا يا أبي إنها رواية وليست قصة!..

عندئذ قهقهه أبي وقال:
- إنك لا تحتاج لمرافقة المجانين لكتابة قصة
عنهم، يكفيك أن تُدوّن ما قمتَ به؛ فما فعلته لم
يفعله أي مجنون قبلك يا أحمق!..

ثم تابع طريقه نحو الحمام وهو يقول ضاحكا:
- يا إلهي!.. سأحكي ما قمتَ به لأصدقائي على
مائدة العشاء.. مممم لا شك أنهم سيضحكون
كثيرا!.. لا شك أنها ستكون جلسة ممتعة جدا!..
أرجوك يا ليث، أكَثِرْ من هذه الافعال الغبية
المضحكة مستقبلا؛ لكي أضحك كثيرا وتنال
رضاي!..

ثم دخل الحمام.. وعادت أُمي إلى المطبخ دون أن
تتوقف عن لومي:
- ستندمُ على ترككِ لمريم!..

ضقت درعا بعتاب أُمي وتهويلها.. فقلت لها:
- هناك عشرة نساء مقابل كل رجل في العالم يا
أُمي.. هناك الملايين من مثيلات مريم!..
- ما الذي تحاول أن تقوله؟!
- من الغباء أن يحصر الإنسان نفسه في شخص لا
يطيقه وفي العالم مليارات من البشر!.. هذا ما
أقصده يا أُمي..

غادرتُ البيت عائداً إلى السوق.. متجشّئاً رائحة السمك طوال الطريق السيار، مسترجعاً ما دار بيني وبين أمي من حوار.. لقد توقّعتُ اعتراضها قبل إقدامي على ما أنا فيه، لكنه يبقى اختياري أنا ولا دخل لأحد فيه.. إن المسكينة تظن أن ما فعلته بخصوص مريم وتجارتي سيجعلني مستقبلاً من النادمين، وتجهل أن الحياة الروتينية المملة قد تُحوّل بعض الناس إلى جُناة مجرمين.. وبالنسبة لي، أفضل أن أكون مجرماً باختيار، على أن أكون كذلك رغماً عني.. فالأول سيتحملُ عقاب ما اقترفت يده راضياً، أما الثاني فسيتحسّر على غبائه وهو يلوم الناس والأقدار باكياً.. وأنا لستُ من النوع الذي يرضى بلوم الناس والأقدار.. تلك الأقدار التي شئت أن ألتقي ريم مجدداً عند ملتقى الطرق وهي تنتقل من سيارة لأخرى عند إشارة المرور، تتأبط علب المناديل بيسراها وتعرض واحدة منها للسائقين بيمنها.. إلى أن لمحتني على الرصيف وأقبلت علي مبتسمة تقول:

- أنت هنا يا ليث!.. لقد تعب أخي في البحث

عنك!..

- لأي شيء يريدني؟!..

- لا أدري!.. لعله أراد اصطحابك إلى البيت لتتناول

معنا وجبة الغداء.. هل تغديت؟!..

- أجل!.. لقد أكرمتني سيدة وزوجها العجوز

بوجبة من السمك المشوي!..

- تمعّنت ريم في ملامحي قليلا.. وقالت:
- ولم تبدو منزعِجا؟!.. أبسبب الطريقة الفضة التي تصرفْتُ بها معك صباحا؟!
 - ابتسمتُ ضاحكا من سؤالها البريء.. وقلت لها نافيا:
 - لا.. إنها مشاكل أخرى لا علاقة لكِ بها!..
 - حدّقتُ إليّ مطولا وكأن الشك ساورها.. قبل أن تقول:
 - إنك رجل غامض يا ليث!..
 - لمَ تقولين هذا؟!
 - لأن مزاجك متقلب!.. تارة تبدو ساذجا مسكينا.. وتارة ذكيا مرحا.. أعجز عن فهمك!..
 - فقهقهتُ ضاحكا.. وأجبتها:
 - وهل تظنّنين أنك قادرة على فهمي خلال هذه المدة اليسيرة؟!.. لقد أمضيتُ حياتي كلها عاجزا عن فهم نفسي، ولا أظنك قادرة على فهمي خلال يومين..
 - ثم صفعتها صفة خفيفة، ومسحتُ على رأسها قائلا:
 - دعينا من هذا الحديث يا ريم.. وأخبريني عن جديدكِ!..
 - لِتَنُطِّ في مكانها فرحًا وتقول بلهجة طفولية بريئة:
 - هل تعلم؟!.. لقد حققتُ أرباحا وفيرة اليوم!..

تفاعلتُ مع قولها مستظرفا:

- حقا؟!.. كم جمعتِ؟!..

ردّت على الفور:

- لقد تجاوزتُ أرباحي ألفين وخمسمائة بالعملة

المحلية!.. إنه يوم مبارك يا ليث!..

- هممم!.. أنا مسرور لأجلك!.. أو تعلمين؟!..

عندما أخبرتني أن الشرطي يمنعك من التسول؛

ظننتُ أنكِ تطلبين من الناس المال!.. قبل أن

أعلم أنّ التسول كان إلحاحك على الناس بشراء

ما تبيعيه!..

فضحكت وهي تُخرج ما بجيبها من نقود .. ثم قالت

وهي تعدّه ضاحكة:

- أجل!.. إنني أبيعهم سلعي غصبا عنهم وألحُ

عليهم حتى يشتروا مني!.. لكن القانون المحلي

يعتبر ذلك إزعاجا للمواطنين!.. دائما ما يُمسك

بي رجال الشرطة ويقتادونني للمخفر

ليستخلصوا مني الغرامات!.. لكنني لا أستسلم

وأعود إلى عملي مجددا!..

- ولماذا تفعلين ذلك؟!..

فكشّت الأوراق النقدية في يدها لتُخرج مربعات

بلاستيكية صغيرة من جيبها الآخر وتقول:

- في كل يوم أضع رقم مبيعات نصب عيني

وأحاول جاهدة تحقيقه!.. أريد أن أصبح

مليونيرة وأسس شركة فور بلوغي سن
الرشد!..

ابتسمتُ مُعجبا بطموحها.. وأردفتُ وفي عينيها
نظرات الاستعفاف:

- لدي طلب!.. أرجو أن تساعدني!..
- تفضلي يا ريم!..

ثم اتجهت نحو باب عمارة مغلق وجلست على
عتبته، وأخرجت من جيبها قداحة صغيرة وهي تقول:
- أرجوك احبني عن الأنظار؛ لا أريد للعابرين أن
ينظروا إلي!..

فاستجبت لطلبها، ووقفتُ أمامها حاجزا بينها وبين
أنظار الناس، وشرعتُ أراقبها باستغراب وهي تطوي
أوراق النقود لتجعلها أقل حجما بقدرما تستطيع، قبل أن
تضعها داخل المربعات البلاستيكية الصغيرة وتُغلقها
وتشرع في لحم أطرافها بنار القداحة!.. فسألتها متعجبا:
- ماذا تصنعين؟! .. لماذا تضعين نقودك في هذه
الأظرفة التي تتعمدين تصغيرها بأقصى ما
تستطيعين؟!

فأجابت بعد أن انتهت من لحم الأظرفة بإتقان:
- إنظر وستري بعينيك!..

ثم أخرجت قارورة ماء صغيرة من جيب سترتها..
وشرعت في بلع الأظرفة البلاستيكية السبعة واحدا تلو
الأخر مستعينة في ذلك بالماء الذي ترتشفه، فيما

وجمْتُ في مكاني منذهلا مما أراه.. إلى أن ابتسمت
وشرحت ما قامت به قائلة:

- إنني أقوم بما رأيته كل عشية.. فبعد أن أجمع
أرباحي، آخذها إلى الصراف وأقوم باستبدالها
إلى أوراق نقدية من فئة مئتين وخمسمائة لكي
يقل عددها ويسعني تغليفها في القطع
البلاستيكية ولحمها بالنار؛ وذلك حتى يسهل
بلعها وتقيؤها بعد ذلك؟!

- وما الحاجة إلى هذا كله يا ريم؟!..
- إنها الطريقة الوحيدة التي أحفظ بها مالي من
لجان المراقبة ومن آداء الغرامات!..

عدتُ إلى السوق بعد صلاة العصر.. وتعمّدتُ أن
أسلكَ رواق الخضارين لأنتشي بروائح البقدونس
والكزبرة والنعناع، ولأملأ ناظريّ من ألوان التوابل
المصفوفة بإبداع، مُجَدِّدا صلتِي بهذه الروائح والمناظر
التي تعيد إليّ ذكريات الطفولة، تلك الطفولة التي
قضيتُ جزءا منها في أرجاء هذا السوق راكضا لاعبا،
صحيح أنني كبرتُ وتغيّرتِ الأحوال من حولي، لكنّ
جزءا مني سيظل هنا على صِغَرِهِ دائبا.. وحتى وإن كنت
راضيا على الكبير القوي الذي صرّته، فإنّي ما زلتُ
مشتاقا للصغير البريء الذي كنته..

وفيما كنتُ مستغرقا في حنيني، شعرتُ بيد تضربني
على كتفي:

- أين كنت يا هذا؟!

التفتُ فإذا به شفيق وفي فمه سيجارة.. ثم
صافحته، وأجبتَه قائلا:

- لقد كنتُ في جولة بين ربوع الحي.. فيم كنتَ
تريدني؟!

فربطَ شعره الطويل إلى الخلف، ووضع يده على
كتفي ونحن نجتاز رواق السّماكين يقول:

- كنتُ أبحثُ عنكَ لتتناول الغداء معا.. لكنني لم
أجدك!.. هل وجدتَ لك عملا؟!

- لا..

- هل زرتَ المأوى البلديّ؟..

- لا..

- هل اتصلت بمحاميك؟..

- لا..

فهز رأسه ورفع حاجبيه ممتعضاً من إجاباتي التي لم تأتٍ بجديد يسره.. ثم قال:
- لا عليك يا صاح!..

لم أكن أدري ما إن كان انزعاجه الواضح اهتماماً بأمري أم رغبةً في التخلص مني؛ لا سيما وأنه قد أسرَّ لي بالأمس عما لا يجرؤ الناس على الإسرار به من أول لقاء.. لكن، من يدري!.. لعله من الذين ييؤحون بجزء من أسرارهم رغبةً في إنشاء علاقات نافعة، ذلك أنها خدعة نفسية تمنحك - بسهولة - ثقة العديد من الأصدقاء المغفلين.. بيد أن صديقه السَّتِيئِيَّ "وولف" لا يبدو من المغفلين، ولا حتى من متوسطي الذكاء.. حتى أن عينيه الخضراوين اللتين تشبهان عيني ثعلبٍ تَبَتَّيَّ، توحيان بالدهاء والمكر الجلي.. أما صديقه الآخران، فيبدوان أقرب شبهاً للحمقى الحالمين.. حمزة الأسمر الذي يحدق إلى السماء في كل وقت وحين، وشاهين الذي لا يكلُّ من ترديد أشعار الغابرين.. ما زلت أذكر كيف كان يصيح مردداً بيتاً من شعر عمرو بن كلثوم لحظة وصولنا إلى مكانهم المعهود:

- أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا ... فَتَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ
الْجَاهِلِينَ..

ثم ألقى مكعب النرد الذي استمرّ في الدوران إلى أن استقرّ على وجهه السادس.. قبل أن يصيح فرحاً، ويأخذ ما وضعه خصماه على الطاولة من نقود وهو يقول:

- لَنَا الدُّنْيَا وَمَنْ أَمْسَى عَلَيْهَا ... وَنَبْطِشُ حِينَ نَبْطِشُ قَادِرِينَا!..

عندئذ أشعل شفيق سيجارته، وأخرج من جيبه ورقة نقدية من فئة الخمسين ثم وضعها على الطاولة وقال مخاطباً الجماعة:

- فلتستعدوا للهزائم يا أصحاب!.. لقد جاءكم ربّ النرد ومَلِكُهُ!..

فمسح شاهين على شعره الأصهب وهو ينظر إلى شفيق بازدراء مصطنع.. وقال بلهجة متعالية:

- أُووه!.. لقد نطقت ضحية الأمس!.. لا شك أنك ستعود إلى بيتك مفلساً من جديد!..

فردّ شفيق والدخان ينبعث من فمه متقطعاً:

- لكل جواد كبوة يا رفاق، وأنا لست ممن يرضون بالهزيمة!..

ثم أمسك بالنرد وألقاه ليسقط مستقراً على وجهه الثاني؛ ويصيح شاهين:

- مرحى!.. يا لك من خاسر يا شفيق!..

فنزح شفيق السيجارة من فمه متوتراً، وحدّق إلى شاهين وهو يحمل النرد ويلقيه مترقباً.. إلى أن استقر

المكعب على الوجه الأول؛ وتنفس شفيق الصعداء، فيما
ضرب شاهين على فخذه متحسرا:
- اللعنة!..

عندئذ حان دور "وولف"، والتقط النرد وهو يرمق
خصومه ضاحكا.. إلى أن انتبه لوقوفه، وقال لشفيق
بنبرته البريطانية:
- لِمَ لم تعرّفنا بصديقك الجديد يا عديم
اللباقة؟!..

فردّ هذا الأخير وعيناه لا تفارقان الطاولة:
- إنه ليث جندي سابق انقطعت به السبل في
المدينة!..

فمدّ "وولف" السمين يده إلي وعلى شفاهه ابتسامة
عريضة:

- مرحبا بك يا ليث!.. أنا أدعى "وولف بارتون"
بورجوازي إيرلندي ساقته الأقدار إلى مجالسة
هؤلاء الأغبياء المنحرفين..

صافحته والجميعُ يضحك من قوله.. ثم ضمّ شاهين
ركبتيه إلى صدره مُقرِّفا، وعرّف بنفسه ضاحكا:

- أما أنا فاسمي "شاهين الصَّبَاغ".. أنا مغربي من
أصل سوري، أنا أديب نحات بلغ من الزمن
عقدين فملّت الحياة منه وملّ منها!..

ثم جذب حمزة من أذنه وقال له:
- ألن تقدّم نفسك لضيفنا الكريم؟!

نزع الأسمرُ أذنه من يد شاهين، وضم شفاهه
الغليظة لهنيهة.. قبل أن يتكلم قائلاً:

- اسمي "حمزة آيت محمد"..

فجذبه شاهين من أذنه مرة أخرى:

- هناك المئات ممن يحملون اسمك وكنيتك يا

بليد!.. عليك أن تخبره بأصولك وبما يُميّزك عن

غيرك!..

نزع أذنه من يد رفيقه مجدداً، ثم فرك قفاه وقال

بعد تفكير قصير:

- أبلغ من العمر سبعا وعشرين سنة وأنحدرُ من

مدينة "ورزازات"..

ثم أضاف شاهين ساخراً:

- أجل يا ليث إنه ينحدر من أكثر إقليمٍ تقصفه

السماء بالنيازك!..

وعلق "وولف" على كلامه وهو يتهياً لرمي النرد:

- أنصحك بزيارة ورزازات في الصيف المقبل يا

حمزة، فلربما أكرمتك السماء بنيذك..

ردّ حمزة مستفسراً وقد تهللت أساريره:

- أتقصدُ أنني سأصبح ثرياً ببيعه؟!

لُجيبه الإيرلندي السمين على الفور:

- كلا يا أبله!.. بل أقصدُ أن تقصفك السماء بنيزك
يُريحك من هذا العالم البئيس، ويُريحنا من
غبائك اللعين!..

فانفجرنا ضاحكين.. وكسب الإيرلندي الجولة بعد
رمية موفقة.. ثم سألني وهو يجمع غنيمته:
- أَكُنْتُ في سلاح الجو؟..
أجبتُه:
- لا..

فسألني مجددا:
- لعلك كنتَ في صفوف البحرية؟..
أجبتُه وقد تمددت ابتسامتي:
- لا..

ليقف حمزة في مكانه وهو يرفع أصبعه:
- من المؤكد أنك كنت في جوف مدفعية
والرصاص يتقاطر عليك من كل صوب وكنت..

قبل أن يجذبه شاهين من مرفقه بقوة ويُسقطه على
إيتيه وهو يقول:
- أنا أجزم أنك كنت من حرس الحدود!.. أليس
كذلك يا ليث؟!..

في تلك اللحظة أدركتُ أن طابع السذاجة الذي
أرتديه لن ينفعني مع هذه التركيبة المتنوعة من
الشخصيات، لذلك ارتأيتُ التخلي عن ذلك الطابع
البسيط واعتماد مقاربة مرنة تسمح لي بمعاملة كل فرد

منهم بما يناسب شخصيته؛ ذلك أنها الطريقة الوحيدة
التي ستحقق أقصى تفاعل ممكن.. فابتسمت وأجبتهم:
- كلا.. لقد كنت قناصا..

انبسطت ملامح وُولف وشاهين من الانبهار.. وقال
حمزة والخيبة تملأ لهجته:
- آآآ.. لو كنت من المشاة لكان خيرا لك!..

فصفعهُ شاهين على قفاه:
- إخرس يا جاهل!.. إن قناصا واحدا يعادل كتيبة
من المشاة..

ضمّ حمزة شفّتيه وهو يفرك قفاه مدركا جهله..
وسألني الإيرلندي في فضول بدا على قسماته بوضوح:
- كم من صورة شطّبت؟!

فاستوضحته قائلا:
- عذرا!.. لم أفهم سؤالك!..

ليعيد صياغته مبتسما:
- أقصدُ كم نفسا قتلت؟!

تردّدت كثيرا.. قبل أن أجيبه بأكثر الحقائق التي
أتمنى نسيانها:
- لقد قتلتُ شخصا واحدا!..

لا أنكر أن احتكاكي بعائلة ريم قد أفادني في جمع كمّ مهمّ من المعلومات، غير أن امتلاكهم لمسكن منعني من تصنيفهم ضمن المشردين.. وعليه، فإن انطلاقي الحقيقي في سبر أغوار عالم التشرد، هو لقائي برفاق شفيق.. لذلك كان من الطبيعي أن أعتذر له عن المبيت في بيته، وأختار قضاء ليلتي بمقهى من مقاهي السوق الشعبية رفقة "وولف" وأصحابه..

كان المقهى فسيحا، على النمط المغربي التقليدي من حيث الديكور.. فسيفساء أندلسية تزين الجدران، سقف منقوش من الخشب تتوسطه ثريا عملاقة من الكريستال.. أرضية رخامية فيروزية الألوان، في منتصفها نافورة طولها متران.. فيما تناثرت طاولات ومقاعد من العرعار في شتى الأرجاء دون نظام.. أما شكل مرتاديه فهو أبعد ما يكون عن الرقي الذي يتميز به.. الشيء الذي حيرني فعلا، وشغل تفكيري وأنا أحرق إلى الماء الرقراق لوقت طويل.. قبل أن ينطق حمزة - الذي كان يقاسمني الطاولة - وقد لاحظ تحديقي إلى النافورة:

- أعجبك المكان أليس كذلك؟!..

- أجل.. إنه رائع فعلا!..

فربّع يديه على الطاولة ووضع ذقنه عليهما وقال
بلكنة متحمسة:

- وهل تعلم قصته العجيبة الغريبة؟!..

- لا..
- أتريد أن أخبرك بها يا ليث؟..
- أجل.. تفضل!..
- عندئذ رفع رأسه عن الطاولة ولمعت عيناه بمكر:
- سأخبرك.. لكن بشرط!..
- تعجبْتُ قليلا.. وسألته:
- وما هو شرطك؟!..
- فالتفتَ يمينا ويسارا.. واقترب مني هامسا:
- أن تُقْصَّ علي كيف قُتِلَت العدو ببندقيتك، وعن شعورك بعد ذلك!..
- حدقْتُ إليه مطولا وقد أدركْتُ من خلال كلامه وحركاته أن به اضطرابا نفسيا.. ثم قررتُ مجاراته توطيدا لعلاقتي به:
- اسمع يا حمزة.. إن قصة هذا المكان لا تهمني ولن تنفعني بشيء..
- فاتسَعَت عيناه من قولي وضمَّ شفثيه من الخيبة مجددا.. ثم استأنفتُ قائلا:
- لكنني سأقْصُ عليك ما وقع، وسأخبرك بما تود سماعه!..
- فانبسطت ملامحه من جديد وابتسم.. وتنحنح وشرع في السرد:

- لقد كان في البداية بهوا يستقبل فيه مالكة
إدريس الضيوف!.. إدريس كان فردا وحيدا بلا
أسرة أو عائلة.. فلما أوشك على الموت؛ أورث
البيت إلى "حسن" المتشرد، فسكن حسن في
الطابق العلوي وحول البهو إلى المقهى الذي نحن
فيه الآن!.. انتهت القصة!..

ثم ضحك بخبث واضعا كفه على فمه.. وقال:
- لقد ظننتها قصة طويلة مثيرة الأحداث أليس
كذلك؟!.. لقد خدعتك.. هيهيهيه..

حدثته بنظرات استغراب وانفلتت مني قهقهة.. ثم
أخبرته:

- هل تعلم أنك غريب الأطوار؟!

فحرّك رأسه يمنة ويسرة نافيا، ثم ارتأى أن أحكي
له القصة التي يريدها بطريقة مثيرة تتناسب
وشخصيته الغريبة:

- كان الجو يومها حارا.. وكنتُ ملثما بالسواد في
ركن سطح بناية عالية ممسكا بندقيتي القناصة،
منتظرا ظهور العدو.. مكثتُ رابضا في مكاني
لساعات والعرق يتصبب من جبیني لقصة أنفي
عبر فتحة القناع ليتساقط على البندقية.. مرّت
الساعات وكأنها دهور.. إلى أن ظهر العدو متجها
إلى أحد المدنيين الأبرياء.. أخذتُ شهيقا،
وتوقفت عن التنفس منصتا لنبضات قلبي..

صوّبْتُ على صدرِ العدو.. وفي تلك المدة التي
تفصل بين النبضتين أطلقتُ الرصاصة.. لتستقرَّ
في قلب الهدف ويقع على الأرض بلا حراك!.. ثم
وضعتُ القناصة في حقيبتها وتركتُ رصاصة
للتاريخ على سطح البناية..

ظل حمزة مشدوها فاغرا فاه وقد برز جزء من
لسانه.. وتابعتُ بنبرة واثقة:

- إنها الحياة يا صاح.. فلتكن ذئبا كيلا يتمّ أكلُك!..

في تلك اللحظة ناداه الإيرلندي "وولف" الذي كان
يلعب الدومينو برفقة شاهين على الطاولة المقابلة:

- تعال والعب مع شاهين يا حمزة لقد مللت من
اللعب!..

فقام حمزة عن مقعده وهو ما يزال على ذهوله،
تاركا مكانه للإيرلندي الذي ثنى رقبته يمنة ويسرة
وخفض حزام سرواله عن بطنه الكبير، قبل أن يجلس
قبالي ويبتسم قائلا:

- مرحبا بك يا ليث في مقرنا.. لعل المعتوه الثرثار
أزعجك!..

نظرتُ إلى حمزة الذي انغمس كلياً في اللعب، ثم
ابتسمتُ وأجبتُ الإيرلندي:

- كلا!.. إنه يبدو ظريفا!.. لقد سألتني عن الصورة
التي شطّبتُها!..

فضحك السمين وقال:

- يسرّني أنك استعملت عبارتي!.. لقد درج استعمالها كناية عن القتل وأخذ الأرواح..
- أجل.. لكنها تُحيل على الانتقام بشكل أكبر؛ خصوصا ذلك المشهد الذي يشطب فيه البطل على صور أعدائه المعلقة على الحائط بعد قتلهم..
- نعم.. تماما يا ليث!.. لقد أثرت فضولي لمعرفة القصة.. كيف حدث ذلك يا قناص!..
- أيّ حدث؟!
- أقصد الروح التي أخذتها!..

فأطرقْتُ رأسي مبتسما.. وسردت عليه الحدث بالطريقة التي تتلاءم وطبعه البارد:

- كنتُ حينها ما أزال متدربا، حين استعانت بنا شرطة ولاية فاس لتأمين خطاب رسمي لحاكم ولايتها؛ بعد أن تلقت أجهزة الاستخبارات في وقت سابق معلومة عن تهديد محتمل.. فأخذتُ مكاني على السطح المقابل للمنصة، فيما تموضع رفاقي على الأسطح المجاورة.. وبمجرد أن شرع الحاكم في خطابه تسلل شخص من بين الجمهور وتقدم مسرعا باتجاه الحاكم وييده شيء لم أستطع تمييزه.. ثم تلقّيتُ الأمر بالإطلاق؛ وأطلقتُ النار عليه.. قبل أن نعلم بعد فوات الأوان أنه مجرد مواطن مظلوم أراد أن يقدم شكاية للحاكم..

فَهَمَّهم وضاحت عيناه الماكرتان قائلاً:

- إنه لأمر مؤسف حقاً!.. وماذا فعلتَ بعد ذلك؟!..
- تم تصنيف العملية كضرر جانبي، وقررتُ ترك الجيش للأبد!..

هزهز "وولف" رأسه ببطئٍ دلالة على التأسف.. ونظر إلى ساعته؛ لتهتَزَّ حواجبه وكأنَّه تذكَّر شيئاً ما.. ثم قام من مكانه مصفّقاً:

- لقد حان الوقت يا شباب.. فلتُغلقوا الأبواب!..

فقام ثلاثة من الجالسين إلى الأبواب وأغلقوها، فيما شرعتِ البقية في جمع المقاعد والطاولات وتصفيّفها بمحاذاة الجدران.. وتوجه شاهين إلى باب مغلق في الزاوية، وفتحه ليُخرج منه أفرشة وبطانيات ويشرّع في توزيعها على الحاضرين.. إلى أن حان دورى وسلمني خاصتي قائلاً:

- نعتذر لك عن انعدام الوسائد!..
- أخذتُ عنه ما يحمله، وابتسمتُ قائلاً:
- لا عليك.. سأتوسد "الجاكيت"..
- اختر لك مكاناً بعيداً عن الأبواب!.. ووضّب فراشه فيه!..
- أجل لقد انتصف الليل، وسأخلد إلى النوم الآن..

فقهقه ضاحكاً وقال:

- عن أي نوم تتحدث يا ليث؟!.. لم تبدأ سهرتنا بعد!..

وفي غضون دقائق معدودة -وعلى عكس ما كنت أنتظره- تحول المقهى إلى مكان لصحن الحشيش.. وانشغل المتشردون في دقّ قطعه البنيّة في همة ونشاط مستبشرين، وصَجَّ المكان بأحاديثهم التي غلب عليها سرد النكات وأمثال الأولين.. فبدّوا ساعتها وكأنهم أطفال بُشّروا بأكل الحلويات والساكابر، ثم امتلأت أرجاء المكان بدخان اللفائف والسجائر.. راقبتهم عن كثبٍ وهم في لهفة ينتشون، يستنشقون بعمق وببطءٍ ينفثون.. شيئاً فشيئاً، تسلت رائحة الحشيش العشبية إلى أنفي، وتوغّلت نكهته عبر منخريّ رغم أنفي.. كان الإيرلندي على فراشه -عن يميني- يدخن لفافة بطول كفه، بينما كان شاهين جالسا قبالي ويحتضن مجسما منشغلا بنَحْتِه.. أما حمزة فلقد طاف الأرجاء لبضعة من الوقت، قبل أن يقف أمامي فجأة وكأنه الجنّي الذي ينبثق من الدخان:

- ليث!.. ألم تر قطعة الحشيش خاصتي؟.. لقد أرهقني البحث عنها!..

أجبتُه بالنفي، ثم شرع في وصلةٍ أخرى من البحث.. كان يبحث في كل مكان، على الأفرشة، بين المقاعد، تحت الطاولات.. تارة يمشي، تارة يجبو، تارة يزحف.. إلى أن وصل إلى فراش شاهين وحاول أن يفتشه، فانزعج شاهين الذي كان منهمكا في النحت وصفع الأسمر قائلا:

- ألن تنتهي عن عادتك الغيبة هاته؟!.. تُضَيِّع
حشيشك ثم تقوم بإزعاجي!.. انصرف من أمامي
عليك اللعنة!..

ثم ابتعد حمزة وهو يحك وجهه.. ولوّح لي شاهين
قائلا:

- لعلّه دَخَن حشيشه؛ فانتشى ونسي!.. إنه يفعل
ذلك دائما!..

شرعتُ في الضحك، وقام شاهين مقبلا إلينا
بمنحوتته الخشبية، ثم دنا الإيرلندي وأخذها منه.. وقال
وهو يتفحصها:

- هممم.. أعتقد أن حجمها مناسب!..

لم أفهم المقصد من كلامه، وأخذتُ أتأمل المنحوتة
التي بدت كوجه مشوّه المعالم.. إلى أن طرق عليها
شاهين بإزميله وقال:

- لم أنته منها بعد يا ليث.. سوف تنال إعجابك
عندما تكتمل!..

ابتسمتُ في وجهه وعقّب "وولف" قائلا:

- إنه يعمل بشكل يومي، ويبيع منحوتاته في
الأسواق.. هكذا يكسب رزقه!..

ثم أضاف وهو يعيد المنحوتة لصاحبها:

- أتمنى ألا يكون وجه فاطمة مجددا.. إنك لا
تتعب من نحت وجهها!..

فضحكْتُ من قوله، وسأَلته والفضول يتملّكني:

- ومن تكون فاطمة؟!

رد الإيرلندي ضاحكا بعد أن نفث الدخان:

- إنها زوجته السابقة، لقد خلَعَتْهُ منذ سنتين..

لكنه يأبى نسيانها!..

فجثا شاهين على ركبتيه، مطأطئا رأسه وقد وضع

المنحوتة على الأرض وصاح بعصبية :

- ألن تعذرني يا وولف!.. لقد قضيتُ معها أجمل

سنة في حياتي!..

رد الإيرلندي ساخرا:

- همممم!.. ولماذا خلَعْتَكَ إذا؟!..

فحدق شاهين إلى الفراغ بنظرة حزن وأسى وأجاب:

- لقد قالت إنها عاشت معي أسوء سنة في

حياتها!..

فانفجر جميع من في المقهى ضاحكين.. وهرع إلينا

حمزة وقد وجد ضالته أخيرا:

- لقد ظنَّتِ اللعينة أنني لن أجدها.. لكن هيهات،

إنها لا تدري أنها أمام صقر حاذق!..

ليَرمُقْهُ الإيرلندي باستهزاء.. ويسأله مستغريا:

- عم تتحدَّثُ يا أخرق؟!..

أجاب حمزة وقد انهمك في تفتيت قطعة الحشيش:

- أتحدث عن هذه القطعة اللعينة!.. لقد فتشتُ عنها شبرا شبرا، قبل أن أكتشف أنها كانت ملتصقة بقدمي طيلة الوقت!..

فأعرض عنه الإيرلندي ضاحكا من غبائه، واسترسل شاهين حديثه عن طليقته بنبرة حزينة:

- لقد انزعجت من غيرتي عليها، ولم تتحمل هيامي بها، فقررت أن تبتعد عني وأن تتركني متعلقا بها.. هل تظنون أنها ستعود؟!.. أتراها تشتاق إلي كما أشتاق إليها؟!..

كنتُ أظهرُ له تعاطفا قهرا عما يملأ قلبي من اشمئزاز وامتناع، ذلك أنني لم أكن قط على ود مع هؤلاء الذين تلهث قلوبهم وراء من لا يُقدرهم، فلطالما كانوا في نظري أحقر الأغبياء.. لقد كان بإمكان أكبر السفاحين أن يحصل على احترامي، لكن شخصا رقيقا ضعيفا كشاهين لن يحصل إلا على ازدرائي.. ولعل الإيرلندي كان يشاطرنِي الرأي عندما قال لشاهين منفعلا:

- اسمع يا شاهين.. إن كنت من الذين لا يطيقون العيش في هذه الدنيا من دون حبيب، فلتجعل ثلة من الأحباء في دكة الاحتياط؛ فأن تجد بديلا سريعا لمن يبتعد عنك، أرحم لنا من سماع شكواك عن الغدر وألام الفراق!..

قبل أن يضيف حمزة وهو يمرر لسانه على طرف

اللفافة:

- لقد صدق "وولف" يا شاهين.. إن إحدى أكبر الخدع التي انطلت عليك، ظنُّكَ أنَّكَ بحاجة لمن يحبك!..

فحدجه شاهين بنظرة استخفاف وقال:

- ومن أخبرك بذلك أيها المعتوه؟!

رد حمزة ضاحكا وقد انتهى من صنع لفافة الحشيش:

- لقد أخبرني أبي.. فعندما طردني من البيت قلت له "إنك أب سيء لا تحبني" فأجابني: "فلتغرب عن وجهي، إنك لا تحتاج إلى الحب لكي تعيش، بل تحتاج لكثير من المال الذي لن تناله بالنوم في بيتي أيها الكسلان".

وفي تلك اللحظة التي ضحكنا فيها، فُتِحَ باب من أبواب المقهى واضطرب من فيه هلعاً وزعراً.. قبل أن يدخل شفيق مبتسماً يقول:

- على رسلكم، هذا أنا!..

لينطق شيخ طاعن في السن يستلقي قرب باب الحمام:

- لقد أفزعتنا يا ولدا!.. ظننَّا أنهم المراقبون!..

فجلس شفيق إلى جوارنا مخبراً:

- لقد ثمل "حسن" مجدداً وسقط نائماً أمام بيتنا كالمعتاد.. فأيقظته وقمْتُ بإيصاله إلى هنا..

ثم التفت إليّ وأردف ضاحكا:

- إنه نفسه السكران الذي رأيناه من السطح ليلة أمس!.. إنه مالك المقهى..

ابتسمت ضاحكا من طرافة الصدفة، وعقب الإيرلندي:

- ياله من معتوه!.. لو كانوا يجلدونه ثمانين جلدة دفعة واحدة لما عاد إلى الخمر!..

لأستفسره قائلا:

- وكيف يجلدونه إذن؟!..

ويجيبني حمزة مفسرا:

- إنهم يقسمون العقوبة على ثمانية أيام، عشر جلدات لكل يوم..

قبل أن يصدر شاهين قهقهة مدوية ويضيف:

- ياله من أحمق!.. إنه يشمل حتى يبيل سرواله، ثم يُصبّح على رجال المخفر ضاحكا يقول: "اجلدوني ولكم الأجر"..

ضحك الجميع مجددا، واستمروا في خلق أجواء الفكاهة والمرح.. بينما كنت منشغلا بالبحث عن جواب لسؤال وحيد!.. من يزود هؤلاء بالخمر والمخدرات في ولاية تحظر بيعهما وتعاقب على ذلك؟!.. ولما شعرت بارتجاج في دماغي؛ أدركت أنه مفعول الحشيش، ثم استلقيت في مكاني ملتحفا خوفا من الإنتشاء..

لقد مضى أسبوع على أول ليلة قضيتها مع الإيرلندي ورفاقه.. أسبوع تنقلت فيه بين البيت والمقهى، وصاحبت فيه العقلاء والحمقى.. كنت أعيش متقمصا شخصيات شتى، عاقلا مع وُلف وأحمقا مع حمزة.. ساذجا مع شفيق، وشاعريا مع شاهين.. صبيا مع ريم، وطفلا مع أمي.. أما الجيران الذين كانت نظراتهم إليّ تتفاوت بين الإشمئزاز والشفقة وبقية الناس الذين تباينت تصرفاتهم بين الغلظة والرقّة، فكنتُ اكتفي أمامهم بالصمت وادعاء المسكنة.. لقد أهملتُ شاربي ولحيتي، وأطلتُ أظافري، وتعمّدت ألا أغسل ثيابي.. مرتديا أكواما من الملابس تارة، وتارة أخرى مكتفيا بجلبابي.. ذلك أننى كنت أسعى لأخراج كل ما يمكن أن يُضمره الناس للمتشردين في نفوسهم.. وصادفت جراء رغبتى هذه ما ألهبَ قلبي حقدًا، وما ملأه حبا.. لقد عشتُ أيضا ما أشبعني ضحكًا، وما ألمني حزنًا.. بيد أن الحزن لم يكن لأجلي، بل لأجل أولئك المتشردين الحقيقيين الذين يعيشون كل أيامهم في ما أحاول أن أقمصه في بضعة أيام.. لن أنسى أبدا ذلك الثري البدين الذى استدعى الشرطة فقط لأننى طرقتُ بابه طلبا لشربة ماء قبل أن ينعتني بالحقير طالبا من الشرطة كنس الشوارع من أمثالي.. لن أنسى أبدا ذلك المتشرد المسكين الذى آثرني على نفسه وقدم لي رغيفه

الوحيد.. لن أنسى أبدا تلك السيدة التي انتهت لنعلي القديم واقتنت لي حذاء جديد.. أما الموقف الذي يجعلني أنفجر ضحكا كلما تذكرته، هو ما وقع -قبل يومين- في مسجد الحي أثناء صلاة الفجر.. فبعد أن دخلتُ المسجد مستحييا مُخرجاً من هندامي، لمحتُ متشرداً قد وقف في آخر الصف والإمام على وشك الإقامة.. فهرعتُ إليه لَمَّا رأيتُ فيه صيدا خصبا لروايتي، وعزمتُ على السلام عليه بعد الصلاة للتعرف عليه والحصول على صداقته، غير أن الأمور لم تسر كما خَطَّطْتُ لها حين رمقَ هندامي بازدراء وابتعد عني إلى جوار مُصلٍّ بأقصى اليسار.. المضحك في الأمر أن هذا الأخير ابتعد بدوره عن المتشرد، واختار أن يصلي وحيدا خلف الصفوف..

هذه الواقعة الأخيرة جعلتني أدرك أن احتقار المتشردين لا ينحصر في غيرهم، بل يسود أيضا فيما بينهم.. وجعلتني أدرك أن الشعر الأشعث والوجه الأغبر والثياب المتسخة الممزقة التي أرثديها لن تُبعد عني عامة الناس فقط، بل ستُبعد عني المتشردين أيضا.. لذلك ارتأيتُ أن أعدّل من هندامي قليلا، بحيث أبدو بئيسا وحسنا في الآن نفسه.. فأخذتُ مقصّا واستقبلتُ المرأة، وشرعتُ في هندمة شعري وثيابي إلى أن حصلتُ على الشكل المطلوب وهممتُ بالخروج.. بيد أنني فوجئتُ بأمي تنتظرني عند الباب حاملة هاتفها بيمينها

وعصا العجين بشمالها.. أذكر أنها رمقتني بنظرة تحمل الكثير من اللوم والعتاب، قبل أن تمد لي الهاتف وتقول:

- خذ كلم طليقتك!.. إنها على الخط تريد التحدث معك!..

حدّثت إليها مطولا وأنا أضع يديّ على خصري.. ثم تأفّفت قائلاً:

- آآخ يا أمي.. ألم أطلب منك ألا تتصلي بها؟
- هي التي اتصلت.. خذ كلمها!
- لا.. لقد انتهت ما بيننا!.. وما عاد هناك من داع لأكلها..

شرعت أمي في تقليب عصا العجين في يدها وهي تبتم كعلامة على التهديد.. فضحكت من حركتها وأخذت الهاتف من يدها لما أيقنت أنها لن تخطئ في تصويب العصا إن عصيت أمرها.. ثم وضعت السماعة على أذني قائلاً:

- ألو.. مرحباً!..
- مرحباً ليث..

سكت قليلاً منتظراً أن تُردف، لكنها لم تفعل.. فتكلّمت قائلاً:

- نعم يا مريم أنا أسمعك..
عندئذ قالت بحزم يملؤه الفضول:
- إنه سؤال واحد أريد عنه جواباً صادقاً يا ليث!..

نظرتُ إلى أُمِّي التي كانت تحدد ملقبة سمعها
بفضول.. ثم قلت:

- حسنا يا مريم.. إسألني!..
- لقد سألتُ أُمكِ وحكت لي كل شيء.. أعلم أنك ادعيت الجنون لكي تنفصل عني وتتفرغ للكتابة.. لكن، ما الخطأ الذي ارتكبته في حقك حتى سهّل عليك الانفصال عني؟.. كان بإمكانك أن تمارس هوايتك دون انفصال، لكنك انزعجت مني لسبب ما! أنا لا أستعطفك الآن، بل أريد فقط أن أقيم نفسي كيلا أكرّر نفس الخطأ إن حدث واقتربتُ مستقبلا.. كان بإمكانك أن تكون صريحا معي يا ليث ونفصل دون حاجة إلى تلك المسرحية!..

فضحكْتُ قائلا وقد تملكني العجب:

- مهلا!.. مهلا!.. لو لم تأتِ أُمكِ بطلب الطلاق لما تطلقنا.. أنتِ من سمح بحدوث ذلك!

لتصرخ في وجهي:

- أنتِ من وقّع!.. أنتِ من خطط لكل شيء!..
- لقد كان بمثابة اختبار يا مريم!.. لكنك فضلت الانصياع لأوامر أُمكِ!..
- وهل تظن أن هناك عاقلة سترضى بالبقاء على ذمة مجنون!.. كيف كنتُ لأطمئن على نفسي مع

مجنون يعوي كالذئاب ويضحك كالقروء؟!.. قد
يقتلني في أي لحظة!.. بربك كن منطقيا!..

شعرتُ للحظة أنها على صواب، وكادت أن تدفعني
للاعتذار، بيد أنني لم أفعل؛ حين رأيتُ أن ذلك سيجعلني
أبدو غيبا جدا.. فقلت لها:

- سأجيبك عن سؤالك.. نعم هناك أسباب أخرى..
تصرفاتك ما عادت تعجبني، وأسلوبك ما عاد
يروقني!..

فهممتُ بعمق.. وندت عنها آهة طويلة:

- آها!.. أسلوبك لا يعجبك إذن؟!
- نعم.. إنه لا يعجبني ..
- لا عليك.. هناك ألف طريقة لتصدم رأسك
بالحائط يا بليد!..

ثم ضحكتُ باستفزاز وأغلقتِ الخط في وجهي..
قبل أن أبتسم ضاحكا لذلك، وأعيد الهاتف إلى أُمي التي
طلبتُ مني خلاصةً لِمَا قالتَه مريم:

- ماذا قالت لك يا بني؟!
- لاشيء.. ثرثرة وعناد، وغباءٌ نسائي كالمعتاد!..
فطرقتُ على رأسي بالعصا وقالت:
- فلتحترمني يا بني!.. أم أنك نسيت أنني من
النساء!..

لأسرقَ قبلة من وجنتها معتذرا:

- فلتسامحيني يا أماه!..

فأعرضت عني تتصنع الخصام:

- كلا يا بني!.. لن أسامحك حتى تعود إلى رشدك
وتنزع عنك هذه الخِرَق البالية التي ترتديها
وتقصّ شعرك وتشذب لحيتك!.. لقد جعلتنا
بمظهرك هذا أضحوكة الحي!.. لقد صارت نساء
الحي تُخَوِّفن أولادهن بمظهرك!..

انفجرت ضاحكا مما قالته.. وطمأنتها قائلا:

- فلتصبري يا أمي.. سأنتهي من كتابة فصل
المتشردين، ثم سأشرع في فصل المجانين؛
لأعود إلى طبيعتي بعد ذلك.. لقد كتبت ما يفوق
سبعين صفحة الآن، وفي غضون شهر أو شهرين
سأنتهي من جمع المعلومات التي أحتاجها..
- عن أي شهر أو شهرين تتحدث يا مجنون؟!.. ألا
يكفيك ما جمعته من الناس من تهكّم وسخرية
يا بني!..

عندئذ أخبرتها بقناعتي:

- وهل تظنين أن آراء الناس تهمني؟!.. لقد كففت
منذ صغري عن الاكتراث لكلام الناس وآرائهم،
منذ أن علمت أنهم أيضا يقصدون المرحاض
للتخلص من فضلاتهم.. إنهم بشر مثلنا وليسوا
ملائكة يا أمي..

تركتُ أُمي وهي تحوّل في المطبخ، وخرجتُ من المنزل لأجد أباي عند الباب على كرسي متحرك وإلى جانبه "ديدي".. كانا يحدقان إلي ويتسمان، قبل أن يُبعد أباي نظارته عن عينيه الصغيرتين المجمعدين ويقول لـديدي بسخريته التي لا تنتهي:

- هل تعلم يا ديدي أن ابني هذا قد عكس سيرورة التطور وعاد بالحضارة إلى آلاف السنين، فلقد تحول الإنسان عبر التاريخ من رجل كهف إلى إنسان متحضر مثقف، أما ابني فلقد تحول من إنسان متحضر مثقف إلى رجل كهف!..

ثم قهقه بصوته الضعيف بينما كنت أنظر إليه والسأم يتملكني من نكاته.. وأردف مبالغاً:

- ما رأيك يا ديدي برجل الكهف خاصتنا؟!.. إني أفكر جدياً في إهدائه للمتحف الوطني..

عندئذ قاطعته قائلاً:

- ألن تكتفي من تهكمك يا أباي!.. ثم ما هذا الكرسي المدولب الذي تجلس عليه؟!.. لا تقل لي بأن الشلل قد أصابك فجأة؟!..

فأخذ يدور بالكرسي في مكانه قائلاً:

- لقد شعرتُ صباح اليوم بألم في مفصل ركبتني، إضافة إلى ذلك أراه كرسيًا ممتعاً!..

وأضاف ديدي بصوته العجيب موافقاً رأي أباي:

- أجل يا عباس، إنه كرسي رائع خفيف الحركة!..

- قبل أن يتوقف أبي عن هزله ويخبرني:
- اسمع يا بني!.. لقد كنتُ أنتظرك لكي توصلني إلى مقر الإمام صلاح الدين..
 - نظرْتُ إليه مستغرباً أمره اللامعتاد:
 - تريد أن أرافقك؟!.. لطالما أحببتُ أن تتجول بمفردك يا أبي!..
 - أليس من حقى أن أتجول مع ابني الوحيد؟!..
 - بلى يا أبي!.. لكن، أين مقر هذا الإمام؟!.. ومن يكون هو؟!..
 - إنه يقع في درب الإسبان.. لكنني أفضل أن نمر في طريقنا إليه على السوق العتيق؛ فلقد اشتقتُ إلى أجوائه!..
 - فقلْتُ له وقد انزعجتُ من ذلك:
 - لا لن نمر على السوق يا أبي!.. فهناك رفاقي المتشردون وقد يكتشفون حقيقتي إن رأوني معك!..
 - ليردَ بنبرة واثقة:
 - كن مطمئناً يا بني، سنتظاهر أنك خادمي.. اتفقنا؟..
 - حسناً يا أبي.. اتفقنا..
 - فلتدفع بي الكرسي يا بني!..
 - لكن آلة التحكم عند يدك يا أبي!..

- وهل تظن أنني غبي؟!.. إنني أريدك أن تدفع بي لكي تبدو كخادم لي..
- آآآاه هكذا إذن!.. حسنا..

وقبل أن نبتعد عن الحي إلى الشارع المقابل.. أقبل علينا طفل من أبناء الجيران لا يتجاوز الخامسة من العمر، كان يجري وفي يده عظمة صغيرة.. إلى أن وقف أمامنا، وتقدم وأعطاني العظمة وهو يقول:

- فلتتفضل حُبًا وكرَمًا!..

رمقناه باستغراب وتعجب.. وسألته قائلاً:

- لِمَ أعطيتني هذه؟!..!

فأجاب وهو يجمع يديه خلف ظهره في استحياء:

- يقول أستاذنا أن العظام هي طعام الجن!..
- وما علاقتي بما قاله أستاذك يا ولد؟!!

ليردّ قائلاً:

- لقد قالت لي أمي إنك جني الحي؛ لذلك أحببتُ أن أعطيك العظمة..

فانفجر أبي ضاحكاً.. وانطلق الصبي يجري عائداً إلى بيته، قبل أن أتابع دفع الكرسي وأبي يقول:

- يا إلهي!.. لاشك أنك تحولت الآن إلى نكتة يا ليث!.. ألا يزعجك استهزاء الناس بك؟!..
- لا يا أبي!..
- ولماذا أصبحتَ شخصاً عديم المبالاة يا بني؟!!

- لأن عديم المبالاة هو الوحيد الذي لا تنال منه الظروف!..

ثم أردفتُ ونحن نعبر الشارع قائلاً:

- دعك مني الآن يا أبي، وأخبرني عن هذا الشخص الذي نقصد مقره!..

ليتحلى أبي عن نبرته الساخرة، ويجيب بلهجة جادة رزينة:

- اسمه صلاح الدين التازي، الأخ التوأم لحاكم الولاية نعمان التازي.. إنهما توأمان متطابقان، لكنهما من حيث الطباع يختلفان.. فصلاح الدين رجل واقعي حذر زاهد توأرى إلى الظل وعاش حياته متفرغاً للعبادة.. أما نعمان فهو رجل حالم طموح يحب المغامرة، وهذا ما جعله حاكماً للولاية..

- إنهما متناقضان كلياً يا أبي!..

- تماماً.. إنهما كذلك يا ليث، لكن وعلى الرغم من الشعبية التي يتمتع بها نعمان، فإني على يقين أنه لو ترشح صلاح الدين لمنصب الولاية فسيفوز به.. وهذا ما جعل رفاقي في حزب الوسط يطلبون مني إقناع صلاح الدين بالانضمام إلى حزبنا والترشح لمنصب الولاية في الانتخابات المقبلة.. علينا أن نزيح نعمان ممثل حزب اليمين ونقلل من نفوذهم على الساحة السياسية..

- لكن أغلب الشعب يحب نعمان..!
- أعلم ذلك يا بني!.. لكن اليساريين لا يحبونه، وإن استمر نعمان على نهجه الراديكالي فستتحول حربهم السياسية إلى حرب على الأرض، سيما وأن كلا الفريقين يضم عناصر متطرفة ستعمل ما بوسعها لفرض سيطرتها ولو على حساب الإضرار بالشعب.. الوضع على وشك الانفجار، وحزب الوسط هو إبرة الميزان التي ستوازن بين الكفتين والحل الذي سيُرضي الطرفين.. يلزمنا فقط مرشح ذو كاريزما كصلاح الدين..
- لقد قلتَ للتو بأن صلاح الدين رجل عابد؛ ولا أرى بأنه سيغير شيئا من سياسة أخيه!.. أليس الحكم بالقصاص من الدين؟!.. أليس هذا ما يزعج اليساريين ولا يوافق توجهاتهم؟!.. إذن ما الفائدة من جلب شخص سيحكم بنفس ما حكم به أخوه؟..
- الأمر لا يتعلق دائما بنصوص القوانين وحدها، بل يعتمد على الشخص الذي يتولى تطبيقها.. يعتمد على مدى عمق فهم الحاكم للنص ومدى اجتهاده!.. نعم، ندركُ تماما أن القرآن كلام الله وأننا ملزمون بتطبيق حكمه إن أردنا رضاه.. لكن علينا أيضا أن نختار الشخص المناسب الذي لن يستغل هذا الحكم لتحقيق أهوائه الاستبدادية!..

عدا عن ذلك، مشكلة اليساريين ليست مع نظام
القصاص بقدرما هي مشكلة مع حزب اليمين..
أفهمتَ يا بني؟..

- أجل يا أبتاه.. فهمت..

وصلنا إلى السوق الذي كان مزدحما ساعتها، ودخلنا
رواق الملابس التقليدية نزولا عند رغبة أبي الذي أراد
اقتناء هدية للإمام صلاح الدين؛ لذلك شرعَ يتفحص ما
تعرضه واجهات الدكاكين من أحذية وطرايش ونعال
جلدية.. إلى أن استقر ذوقه على عمامة خضراء ودفع
ثمنها للبائع، قبل أن يُحسن هذا الأخير طيها في علبة
ناصعة البياض، ويسلمها لأبي مرددا متمنياتة التي لا
يمل التجار من ترديدها بعد كلبيعة.. وعلى الرغم من
حرصه وتدابيري الاحتياطية التي تمثلت في تجنب
الأمكن التي يرتادها أصدقائي المتشردون، صادف
طريقنا طريق ريم مرة أخرى.. وذلك حين لفت انتباهها
منظرُ أبي على الكرسي ورأت فيه عجوزا ميسورا لن
يخل عليها بشراء مناديلها الورقية.. فركضت إليه
مسرعة تحمل بضاعتها، قبل أن تنتبه إليّ وتبتسم في
تعجب وارتيابك تقول:

- ليث!.. مرحبا ليث..

ويَنطِقُ أبي الذي لا يُحسن التخلي عن سخريته
مستظرفا:

- مرحبا أيتها الجميلة الصغيرة!.. من أين تعرفين هذا المَعْتَوَه؟!

فَنظَرَتْ إِلَيْهِ متعجبة من أسلوبه، وأجابته بعفويتها الطفولية:

- لقد تعرفنا عليه في السوق قبل أسبوع أو أكثر!.. وأنت منذ متى تعرفه؟..

أجاب أبي وقد أخذ منها علبة وأخذ يتفحصها:

- لقد تعرفتُ عليه منذ أول صرخة أطلقها في هذه الحياة.. فاعتنيتُ به وحرصتُ على تربيته، ثم كبر ودرس الفلسفة وعلم النفس وعلوم العسكرية.. وها هو الآن يقف أمامك وقد حقق حلم حياته وصار صعلوكا متشردا!.. نصيحتي إليك يا ابنتي أن لا تكوني غبية كابني ليث!..

قرصتُ أبي على كتفه من الغيظ، وأمسكتُ ريم عن الكلام عاجزة عن الفهم.. حينها أدركتُ أن أبي كان عازما على فضحي علني أنتهي عن أمري وتنتهي أمي من سخرية الجيران، لا شك أنها مَن حرّضه ليمرّ من السوق ويُفسد مخططي.. لكنني -ولسوء حظهما- كنتُ أذكى منهما، وخرجتُ من ورطتي قائلا:

- لا تُلقِ بالا لما يقوله يا ريم!.. إنه زوج العجوز التي تكرمني بالطعام وتدفع لي مقابل أخذه في جولات.. إنه يعاني من الألزهايمر والإكتئاب الذهاني، ويتوهم أشياء لا وجود لها، حتى أنه

يكسر الأواني ويأكل نباتات حديقته في بعض الأحيان.. الشيء الذي جعل زوجته تعرض علي أخذه في جولات لكي يروح عن نفسه..

فابتسمت الطفلة وقد أبدت تعاطفا، ودفعْتُ الكرسي مكملا طريقي قبل أن يتسنى لأبي الكلام مجددا.. وحالما ابتعدتُ عن أسماع ريم شرعتُ في الضحك مقهقها، وضحك أبي بدوره مردداً:
- أيها اللعين!.. أيها اللعين!..

وصلنا أخيراً إلى مقر الإمام صلاح الدين.. والذي كان عبارة عن مسجد متوسط المساحة، تتخلله سَوارٍ غُلِّف نصفها السفلي بالساج.. أما الأرضية فلقد فُرِشت بزرابي خضراء أُحيطت بمساند حمراء.. في حين صُمِّمَت على جداره الشرقي خزانتان عملاقتان يفصل بينهما المحراب في منظر يوحي بالسكينة والرهبة معا.. أذكر أننا انتظرنا طويلاً، قبل أن يدخل علينا صلاح الدين الذي كان صورة طبق الأصل عن أخيه نعمان.. كان رجلاً أبيض وضاء الوجه أقرنى الأنف في الخمسينات من عمره، ذا قامة متوسطة ولحية خفيفة وشعر شديد السواد لا شيب فيه.. كان يختلف عن أخيه من حيث النظرة فقط، إذ كانت أكثر براءة وسمحاً من نظرة أخيه نعمان الحادة الحازمة.. وكان يمشي في تؤدة ووقار خافضاً رأسه، إلى أن انحنى على أبي الجالس وصافحه مبتسماً وحياء بنبرة تعكس الهدوء والأدب الشديد:

- السلام عليكم.. مرحبا بالسيد عباس!.. إنه ليوم سعيد هذا الذي زرتني فيه بعد طول غياب!..
- فقام أبي عن كرسيه بمساعدة من الإمام ووقف أمامه مُقوَّس الظهر وأجاب:
- فلتَرَحَّب بك الجنة يا سيدي.. لا تؤاخذني على الغياب؛ فصَحَّتِي ما عادت تسمح لي..
- ثم صافحني صلاح الدين وقد خفض رأسه في أدب متواضعا:
- مرحبا بك سيدي!..
- قَبْلَ أَنْ يُقَدِّمَنِي إِلَيْهِ أَبِي مَعْرِفًا:
- إنه ابني ليث!.. لقد جلبتهُ معي بشق الأنفس!..
- فضحكنا جميعا.. وطلب منا الإمام الدخول إلى حجرة بجوار المحراب:
- فلتتفضلا ريثما أطلب لنا شيئًا!..
- لكن أبي أمسك بيده قائلا:
- أرجوك يا سيدي لا تكلف نفسك عناء ذلك، لقد جئت لأقول كلمتين وأنصرف..
- رد الرجل:
- كلا كلا يا سيدي!..
- ليقاطعه أبي مُصِرًّا:
- فلتترك ذلك للمرة المقبلة!.. أعدك!..

ابتسم صلاح الدين واستجاب مغلوبا على أمره.. ثم أخذنا أماكننا في الحجرة الصغيرة، وتكلم أبي مفصحا عن سبب مجيئه:

- سيدي.. إنه لا يخفى عليك ما يقع في سياسة الولاية من شد وجذب بين أقطابها الثلاثة، وأخص بالذكر تلك الحرب الباردة التي تدور بين حزب اليمين وحزب اليسار.. أنت تعلم جيدا أن حزب اليمين تفوق بنسبة ضئيلة على حزب الوسط، كما تعلم أن ما يقارب ثلاثين بالمئة من سكان الولاية يؤيدون سياسات اليسار، وأغلبهم من أرباب المصارف والشركات والمصانع.. ولا يخفى عليك أنهم يضيقون ذرعا بتشريعات أخيك الصارمة التي تستهدف كسر شوكتهم ودفعهم إلى الموت البطيء.. الشيء الذي سيشعل عاجلا أم آجلا فتيل حرب بين أنصار الفريقين تُحوّل الولاية إلى ساحة لحرب أهلية.. سيدي.. إن سياسات حزب الوسط التي تجمع بين اليسر والحزم هي الكفيلة بأن تجتمع عليها ميولات الطرفين.. قد تقول إنني مبالغ وأن انفجار الأوضاع بعيد.. لكن بوادره قد ظهرت على الساحة، والعاقل هو الذي يحتال للأمر قبل وقوعه.. إنني وبصفتي عضوا في مكتب حزب الوسط، أدعوك نيابة عن أصدقائي للانضمام إلينا والترشح لمنصب حاكم الولاية في الانتخابات

القادمة!.. إنك الشخص الوحيد الذي لا يستطيع
أحد أن ينتقص من قدره ..

عندئذ ابتسم صلاح الدين وفي عينيه نظرة إشفاق..
وقال وهو يرفع رأسه المطرق:

- سيدي العزيز.. إن لك رأيا حكيما وخوفا على
مصالح الناس.. لكنني رجل لا يفقه في السياسة
ولا يصلح لها.. أنا شخص لم يتزوج لحد الآن
خوفا من أن يظلم عياله ويسأله الله عنهم، ولو
كان بإمكانني أن أتحلل من مسؤوليتي عن نفسي
قبل يوم الحساب لفعلت يا سيدي.. فكيف
تريدني أن أتحمّل مسؤولية ملايين الناس.. كل
راع مسؤول عن رعيته، وأنا لا أتحمّل ذلك..
فلتعذروني؛ إنني حقا لا أستطيع!..

خرس لسان أبي عن الرد وقد أدرك أن ما يطلبه
ضرب من ضروب الخيال؛ فابتسم على مضض.. وقدم
هديته إلى الإمام :

- فلتقبل هديتي أذن!.. ولتفكر في الموضوع
عسى الله أن تكون الرجل الذي ستجتمع عليه
قلوب المواطنين!..

أخذ صلاح الدين الهدية طالبا منا المكوث لتناول وجبة
الغداء في بيته، إلا أن أبي -وكما كان منتظرا- اعتذر عن
ذلك متعللا بظروفه الصحية.. قبل أن يُكرر الإمام
اعتذاره عن الرفض بلباقة ويرافقنا لباب المسجد كما

تقتضي أصول الضيافة.. وفيما هممتُ بدفع الكرسي المتحرك للخروج.. أشار علي الإمام بالانتظار، ودخل حجرته.. ثم عاد مهرولا وبيده ورقة صغيرة سلّمها لي بخفة دون أن يشعر أبي..

خرجنا من عنده وأخذنا طريقنا والفضول يملكني لمعرفة مضمون الرسالة.. وحالما توقف أبي عند متجر من متاجر الفواكه المعلقة؛ أخرجتُ الورقة من جيبتي.. ثم ضحكتُ عندما قرأت رسالته التي كانت كالتالي: "أخي ليث، لا أقصد أن أجرحك، لكن واجبي يحتم علي أن أخبرك أن النظافة من الإيمان".. صراحة، لم استغرب ذلك، فلا شك أن ثيابي الممزقة المتسخة قد ذكرته بأصحاب السعير..

بعد هذه المدة التي قضيتها متنكرا في زي متشرد متضارب الشخصيات، تمكنتُ من كتابة ما يفوق المئة والعشرين من الصفحات.. إذ كنت أمضي الصباح متسكعا في أرجاء المدينة بحثا عن حدث أو انتظارا لخاطرة أدونها، أو مستأنسا بصحة شفيق الذي لا يكل من الاطمئنان على مسألة الميراث التي لا وجود لها، فيما كنتُ أمضي ما بعد العصر مستندا إلى شجرة في حديقة الحي متفرغا لما أكتبه.. أحيانا كنت أجد القدرة على إتمام عشر صفحات، وأحيانا أخرى أعجز عن كتابة بضعة كلمات، لا لنقص في الخواطر والأحداث، بل لافتقادي لتلك المثالية التي أرومها في النص المكتوب، وأعني بذلك حين لا تكون السلاسة حسب المرغوب، وحين لا يكون التناسق كالمطلوب، أي أن المشكلة لم تكن في المضمون بقدر ما كانت في الأسلوب..

الغريب في الأمر أن انغماسي في عالم التشرد أفقدني ذلك الأسى الذي كنتُ أشعر به تجاه المتشردين، دون أن أكون على يقين لأجزم بالسبب الذي يقف وراء هذا الشعور، ربما لأنني صرتُ مدركا لحقيقة الأوضاع بعد أن صرتُ جزءا منها، أو ربما لأنني لم أعش بعد حياة التشرد وإن ظننتُ ذلك؛ فالعائلة التي أملكها والملايين التي في حسابي تمنعني من اكتناه حقيقة معاناتهم.. لكن، في كل الأحوال، لم يكن الإحساس بمعاناتهم أولويا بقدرما كان التقرب منهم والتعرف عليهم أهم شيء

بالنسبة لي؛ سيما وأني سأكون السارد والكاتب في نفس الوقت ولا حاجة لي بالتعمق في حقائق مشاعرهم ونواياهم.. فكنْتُ أكتفي في غالب الأحيان في رصد تصرفاتهم ووصف الأحداث كما حدثت دون الانسياق إلى تحليلها أو الرغبة في اكتشاف دوافعها.. وعلى الرغم من هذا النهج القاصر، فلقد استطعت -بالمعينة فقط- أن أضع الشخصيات على رقعة الشطرنج، إذ تبين لي أن الإيرلندي هو الذكر المسيطر ورأس الجماعة وإن بدا شاهين في مرتبة مساوية لا تُظهر الخضوع، فهذا الأخير كان يستشير في غالب الأحيان ويعمل برأيه، في حين أن الإيرلندي يفعل ما يبدو له دون استشارة أحد.. أما الأسمر حمزة -وإن بدا غيبيا- فله أهمية عند الآخرين، تفوق أهمية شفيق الذي يبدو حازقا سريع البديهة.. صراحة لا أعلم السبب الذي يُقصون لأجله شفيق من أغلب خرجاتهم واجتماعاتهم، لكنني علمتُ من تجسسي عليهم لفترات متفرقة تردّد الإيرلندي على حظيرة للحمير والقطط، وشاهدتُ في غير ما مرة لقاءات بين شاهين وامرأتين في أشهرهما الأولى من حملهما، كما استغربتُ أيضا من هوس حمزة بجمع الأسلاك والرقاقات والبطاريات الدقيقة من أسواق الخردة.. المحيّر في عاداتهم هذه أنها تتكرر في أيام محددة، وفي أوقات بعينها، كما أنها كانت الأشياء الوحيدة المنظمة في حياتهم الفوضوية.. وبالرغم من الحيرة التي أحدثتها هذه العادات، لم أكن على جرأة كافية

لسؤالهم عنها، وكنتُ أكتفي بالتفكير بحثاً عن روابط منطقية وتفسير من شأنها أن تبدد حيرتي.. ولعلني كنتُ منشغلاً بذلك حين انضم حمزة إلى طاولتي عشية يومها، وقال بصوت يهز المقهى:

- ها أنت ذا يا ليث لقد بحثت عنك لوقت طويل!..

كانت معالم السرور بادية على سحنته السمراء، وازدادت اتضاحاً عندما بدت أسنانه البيضاء في ابتسامة ساذجة مرحة.. لأسأله ضاحكاً من تقاسيم وجهه:

- ما الأمر يا حمزة؟!..!

ويُلقي بجسده على المقعد وقد اصطدمت مرافقه بالطاولة من فرط الحماس:

- لقد ارتأى "وولف" أن نرافقه إلى مدينة البيضاء الجديدة!.. لاشك أننا سنمضي بها وقتاً رائعاً يا صاح!..

كان من الطبيعي أن يفرح حمزة لذلك؛ فمدينة البيضاء الجديدة لا تشبه أي مدينة في العالم.. إنها جزيرة اصطناعية أنشئت على مساحة تزيد عن عشرين كيلومتراً مربعاً، وتنقسم إلى ست عشرة مقاطعة لا تتشابه فيما بينها.. وما يجعلها فريدة من نوعها، هو نمط الحياة الذي تتميز به كل مقاطعة عن غيرها، فسكان المقاطعة الرومانية يعيشون حياة الرومان بكل تفاصيلها، وتنتشر المسارح والمدرجات والأبنية

الرومانية العالية في أحيائهم، وسكان الحي الفرعوني
يحَيُّون الحضارة المصرية القديمة بكل حيثياتها،
وتتزين أحياءهم بالأهرام والتماثيل والأبنية الفرعونية
الشامخة.. وقس على ذلك سكان الحي الجاهلي،
والإغريقي، والهندي، والصيني، إلى ما دونهم من بقية
الأحياء.. وإن أردت الاختصار؛ فسأقول أن الجزيرة
عبارة عن عالم قديم أنشأته ثلة من الأثرياء والمثقفين
لكي يهربوا إليه من ضجيج التكنولوجيا وضوضائها، فلا
يُسَمَّحُ للسيارات والدراجات الدخول إليها، ويُمنع
استعمال الأجهزة الكهربائية والإلكترونية فيها.. عدا عن
ذلك، لا يُتاح إلا لمئة شخص زيارتها خلال اليوم الواحد،
وهؤلاء يتم اختيارهم من الأشخاص العشرة الذين يتم
سحب أسمائهم عن طريق القرعة.. الشيء الذي جعلني
أقول لحمزة:

- لقد سحبت القرعة اسم "وولف" إذن!.. ياله من
محظوظ!..

فرد حمزة قائلاً:

- كلا.. وإنما تلقى دعوة من أحد الأغنياء الذين
يسكنون الحي الجاهلي، إنه زبون من زبناء
"وولف" يشتري منه الققط والحمير التي يربّيها
في حظيرته..

- ومتى سننطلق إلى هناك؟!

- علينا أن نكون في تمام الثامنة مساء عند
مدخلها يا ليث..

بعد أن عبرنا الجسر الرابط بين ساحل "عين الذئاب" ومدينة البيضاء الجديدة، توقفت بنا الشاحنة أمام بوابتها العملاقة ذات التصميم الأندلسي العريق.. فَرَحْتُ في انبهار أتأمل جمال ذلك القوس المفصص، وتناسق ألوانه الزرقاء والبرتقالية.. إلى أن انتهى الإيرلندي بمعية الرفاق من تفريغ حمولته التي كانت عبارة عن حمارين وعشرة قطط موزعة على قفصين.. ثم ترجلْتُ من الشاحنة، ولحقتُ بهم عند المدخل حيث كان أربعة عناصر من الدرك ينظمون إجراءات العبور.. كان أحدهم يجلس إلى شاشة الحاسوب، فيما وقف الآخرون عند أطراف البوابة على أهبة الاستعداد لتفتيشنا.. تفرست وجوههم، ونظرات أعينهم الصارمة، قبل أن أسمع صوت الشاحنة وهي تتحرك عائدة من حيث أتت.. في تلك اللحظة، اقترب الإيرلندي مني، ومد لي قفصا من القفصين حتى يتسنى له تطويع أحد الحمارين الذي رفض أن يمثل لرغبة حمزة في اقتياده، فأخذ بزمامه من يد هذا الأخير، ثم عاد والتقط القفص من يدي وكأنه لا يأمن عليه بمعيتي.. الغريب في الأمر، أن القطط كانت مسترخية بشكل عميق لا يتأتى لبني جنسها في ظروف كهذه، والأغرب من ذلك أن الإيرلندي اجتاز البوابة رفقة

حيواناته دون تفتيش يُذكر، فيما تَمَّ مسحنا من رؤوسنا إلى أقدامنا وتفتيشنا نحن الثلاثة بشكل دقيق.. ولما لاحظتُ أن الآخرَينِ لم يُظهرا استغرابا ولا تعجبا مما وقع؛ استنتجتُ أن تصرف الدرك قد يكون نابعا من معرفتهم وتعاملهم المسبق مع "وولف" ..

دخلنا المدينة وقد امتد بصري على طول الشارع الرئيس الذي يفصلها إلى قسمين، وتابعتُ بناظري أعمدته الرخامية المُسرَّجة بالنيران التي منح وهَّجها المدينة رونقا ساحرا سلب انتباهي، قبل أن يتحول هذا الأخير إلى منظر الأهرام العملاقة الثلاثة التي ناطحت الغمام بشكل مهيب عند الجهة الشرقية.. ثم سلطنا الشارع وأنا أسبقهم في زهول إلى أول بنيان صادفناه في طريقنا، ووقفْتُ أمامه محققا إلى أعمدته الحجرية، ثم إلى تيجانها المزينة بالزخارف الحلزونية؛ لأدرك بما لا يدع مجالا للشك أنني أمام بناء يوناني، وبأننا قد دخلنا للتو إلى الحي الإغريقي.. في تلك الأثناء شُفَّتْ أسماعنا بلحن وتَرِّيَّ عذب، وشرعنا في استقصاء مصدره ونحن نستلذ أنغامه، إلى أن أقبلت من بين الأزقة مجموعة من النساء والرجال، يتقدمهم طفل دون العاشرة يعزف على قيثارة يقارب طولها طولَه.. ثم مروا من أمامنا وهم يتبخترون في أثوابهم الناصعة البياض، ويوزعون التحايا والابتسامات، فيما أخذتُ أنظر مشدوها إلى الأكاليل التي على رؤوسهم، وإلى الحلي التي زينت سواعدهم.. قبل أن يتقدم الإيرلندي وهو يجرح حماريه

نحو بركة ماء مستديرة قد بُنيت في المدار الذي تتفرع
منه الطرق الثانوية عن الطريق الكبير، ويجلس على
حافتها وهو يحرك يده في مائها الذي تناثرت على
سطحه الورود قائلاً:

- قم بإيصال الحمارين إلى مُضيفنا يا شاهين،
وسنلحق بك على متن عربة..

فأمسك شاهين بالزمام متثاقلاً، وقال بانزعاج بادٍ
على نبرته ومحياه:

- وددتُ لو أننا استكشفنا بقية الأحياء.. يتمكنني
فضول لزيارة الحي الصيني!..

ورَدَّ الإيرلندي وعلى شفاهه ابتسامة متفهم:

- لا تخفى علي اللهفة التي تملكك يا صاح، لكننا
مرتبطون بموعد ولا يجوز أن نتأخر..

جرَّ شاهين الحمارين على مضض.. ومكثنا عند
البركة والإيرلندي يحتضن قفصيه لبضعة من الوقت،
قبل أن نلمح عربة قادمة يجُرُّها حصانان، وتتوقف
أمامنا وقد ابتسم سائقها في وجوهنا قائلاً:

- مرحبا بالزوار!..

كان السائق شاباً حنطي البشرة يرتدي زي الجنود
الرومان، خوذةً ودرعاً من حديد، ونقبة فوق سروال
قصير وعباءة حمراء.. ومن طول ما حملنا في هندامه
نسبنا أن نرد عليه التحية، ليُردف بنفس البشاشة قائلاً:

- ما رأيكم بجولة في الحي الروماني؟.. أنا على يقين بأنكم ستعجبون بمباريات المصارعة التي نقيمها في حلباتنا، وبالمسرحيات التي نُمثّلها في مدرجاتنا..

فقام الإيرلندي عن حافة البركة، وأجابه مبتسماً وعلى وجهه علامات الامتنان:

- نشكرك على دعوتك يا سيدي.. لكننا مدعوون إلى وليمة في الحي الجاهلي، ولا وقت لدينا الآن لزيارة حي آخر..

فأطرق السائق رأسه مُزيّفاً العبوس، إلا أنه سرعان ما نظر إلينا وقد استعاد ابتسامته:

- ما من مشكلة.. بإمكانني إيصالكم إلى الحي الجاهلي..

ردّ الإيرلندي بلباقة:

- نشكرك سيدي.. لكننا لا نريد أن نطيل الطريق عليك، سننتظر ريثما تمر عربة من العربات التي تُقلّ إلى الحي الجاهلي..

عندئذ قال السائق مُصرّاً:

- فتركبوا ولا تلقوا بالاً لأُمري.. أرى أنني سأستغل الفرصة لزيارة صديق لي في الحي الجاهلي..

كان الحي الجاهلي أكبر أحياء الجزيرة مساحةً وأطولها ساحلاً، وأوفرها رمالاً.. لكنه كان أقلها عمارة،

وأسوءها تنظيماً، وأبشعها تماثيلاً.. حتى أن حمزة الذي لا علاقة لاهتماماته بالفنون، قهقهه بملء فيه ساخراً من تمثال شاهدناه في ساحة الحي:

- هاهاهاها انظري يا ليث إلى هذا الصنم القبيح!.. رأس عملاق بلا فم ولا عنق! عينان جاحظتان! يده على بطنه وكأنه يعاني من الإسهال!.. هاهاهاهاها وكأن الجاهليين كانوا ينجّتون بمؤخراتهم!..

أما شاهين الذي يحترف النحت ويُتقنه، فلقد أقبل علينا بعد أن سلم البضاعة لصاحبها، وتوقف ملياً أمام التمثال القبيح وهو يتحسس تفاصيله.. إلى أن ابتسم في وجوهنا مخاطباً:

- جمال هذه المنحوتة لا يقاس بجمال شكلها، بل بما تتميز به من تفاصيل عن غيرها.. إنني أرى فيها جمالاً لا تملكه آلهة الإغريق..

فرمقه الأسمر بنظرة استخفاف، وردَّ عليه متمسكاً برأيه:

- أنتم الفنانون تحاولون دائماً أن تزيّنوا التفاهة في عيوننا بدعوى العمق والغموض، ومهما طُبِّلت في حق هذا الصنم فلن أراه إلا اعتداء وظلماً في حق الحجارة..

ثم قهقهه مجدداً وهو يشير إلى التمثال:

- أنظر إليه.. أنظر إلى تنورته!.. من يُصدِّق أن أقوام الجاهلية عبدوا إلهًا يرتدي تنورة؟!..
هاهاهاهاها..

فرَّت مني ضحكة جراء ما قاله هذا الأخير وأنا الذي حاولتُ ألا أضحك احتراماً لرأي شاهين.. ثم تنهى إلى أسماعنا صوْثُ الإيرلندي الذي وقف عند بيت في ناصية الدرب وهو يصيح منادياً:

- شاهين.. فلتصطحب الرفاق إلى الخيمة؛ إن عمرو بن كلثوم في انتظاركم..

لأستغرب كلامه قائلاً:

- عمرو بن كلثوم؟!..

ويُعقَّب شاهين مفسراً:

- إنه اللقبُ الذي اختاره مضيفنا تماشياً مع النمط الجاهلي للحَيِّ.. أما اسمه الحقيقي فهو "محمد الغَوَّات" أستاذ جامعي متقاعد متخصص في الأدب العربي..

- همممم.. هو مولوع بالشعر القديم إذن..

- أجل.. إنه كذلك يا ليث ..

اجتزنا الدروب الفارغة من المارة والراجلين، متأملين بيوتها المبنية بالحجارة والطين.. منبهرين بنخيلها التي تميزت به دوناً عن بقية الأحياء، مستضيئين بالقناديل المعلقة في الأرجاء.. قبل أن نمر بالسوق حيث عُرضت الخضر والفواكه في بُسْطٍ على

الأرض، وعُلِّقت على جدرانهِ الأوشحة والسجاجيد
بالطول والعرض.. ألوان غامقة ولا فاتح بينها، سلع
كثيرة ولا حارس لها.. الشيء الذي شجع حمزة على
السرقة بين الفينة والأخرى، تارة ينتشل بيمناه وتارة
بيده اليسرى.. إلى أن دلفنا لآخر منعطف وفوجئنا بمنظر
ولا في الأحلام.. مساحة فسيحة من الرمال قد نُصبت
عليها خيام كبيرة زاهية الألوان، وشاطئ على مد البصر
قد أُوقدت على طوله النيران.. قناديل وردية وأرجوانية
وأُخر كهرمانية وصفراء، وحولها جموع من الناس تُقَلِّبُ
عجولا على نيران الشواء.. الرجال على ضروبهم في
أبهى الأثواب والعباءات، والنساء سافرات ومنقبات قد
ارتدين أجمل المجوهرات.. جمالٌ قد بَرَكْتَ والأطفال
يلعبون حولها، وفرسان قد سَرَّجوا خيولهم لامتطائها..
نسائم البحر المنعشة تلفح الأبدان، وأصوات الدفوف
تُطَرِّبُ الآذان.. في تلك اللحظة نسيت قباحة التمثال،
حين شَفَعَتْ براعة القوم في الاحتفال..

اقتفينَا خطى شاهين إلى أفخم خيمة بين الخيام،
ودخلناها ونحن نلقي السلام.. منبهرين بأثاثها الذي كان
على أفخم ما يكون، سجاد فارسي فاخر بديع الزخارف
والألوان، على أطرافه وسائد من حرير قد اتكأ عليها
رجال وفتيان.. كان عدد الحاضرين قرابة العشرين،
يتوسطهم "وولف" إلى جانب شيخ في الثمانين.. وفي
منتصف الخيمة وُضِعَتْ مبخرة يفوح منها بخور العود

الهندي، بخور استغرقت في استنشاق طيبه متلذذا إلى
أن نادانا وولف باسماء:

- تعالوا لتسلموا على سيد القوم..!

ضحكت من تعبيره الذي أعاد إلى ذاكرتي نوادرا عن
كفار قريش، وتقدمت بعد شاهين إلى الشيخ الذي تألق
في أفخر الثياب مُسلماً وعلى محياي ابتسامة:

- السلام عليكم يا سيد القوم..

كان رجلا ضخماً الهامة، أحمر الوجه، ناتئ الجبهة،
غائر العينين، ذا أنف كبير معقوف.. وما زلت أذكر
ابتسامته العريضة وهو يخرج يده من عباءته الحريرية
السوداء، ويمدّها إلي مصافحاً يبتسم:

- وعليكم السلام أيها الشاب..

ليُقدّمني إليه الإيرلندي مُعرّفاً:

- أقدم إليكم صديقي ليث، إنه جندي متقاعد قديم
إلى ولايتنا أملا في حياة جديدة..

ازدادت حرارة المصافحة، ثم أفسح لي الشيخ
الثمانيني عن يمينه طالبا مني الجلوس بصوته
الجهوري:

- تفضل يا رجل..

استغربت تفضيله لي عن البقية رغم رداءة هندامي،
وأخفيت أظفاري المتسخة احتراما لمقامه، ثم اتكأت
على الوسادة التي تضاهي نعومتها ريش النعام وكلي
إنصات للحديث الثنائي الذي يدور بينه وبين الإيرلندي:

- أرى أن أوعية البلاستيك تؤثر على جودتها بنحو طفيف.. ألا يوجد بديل آخر يا "وولف"؟
- إنه أجود أنواع البلاستيك يا سيدي.. ولا أجد وعاء يتمطط ويتكيف وعناصر الخزان مثله..
- فحدّق الشيخ باتجاه المبخرة قليلا.. قبل أن يُطرق رأسه متأففا:
- اللعنة!.. لقد هزَمنا بالاحتياال، ثم حكم بأحكامه!.. وها نحن نمارس شغفنا خفية كجرذان المجاري!..
- لم أكن أعلم عما يتحدثان لحظتها، ولم أكن مهتما بذلك.. وكدتُ أن أفتح حديثا مع شاهين، لولا أن الرجل لفت انتباهي بكلامه حين قال:
- علينا استعادة حرياتنا المسلوبة يا "وولف"، وحزب الوسط سيكون ورقتنا الرابعة..
- سكت الإيرلندي قليلا وهو ينظر إلى الأرض.. وقال:
- وهل تظن أن حزب الوسط سيعيد فتح الحانات والказينوهات إن نجح في الانتخابات؟.. لقد صوت مواطنو الولاية على الدستور الذي اقترحه نعمان وانتهى الأمر..
- فأجاب الثمانيني ومعالم الدهاء ترتسم على وجهه رويدا رويدا:
- "الدين لله والوطن للجميع" هذا ما تكرره قيادات حزب الوسط.. أما قرار الساكنة فيتغير وفق

ظروف الاقتصاد، لا أنكر أن نعمان التازي قد عزف على الوتر الحساس واستغل الدين ليوهم الناس بالعودة إلى الأمجاد القديمة.. أما نحن فسنضع الناس أمام الواقع، أمام إغراء بمستقبل أفضل ورخاء لم يسبق للولاية أن عاشته.. عندئذ سيدرك الناس أن الماضي مجرد حكاية لا تُسمن ولا تغني من جوع..

- ألا ترى أنك تستخف بعقول المواطنين يا سيد القوم؟..

ليضحك سيد القوم من أعماق قلبه ويقول خافضا صوته:

- إن إسلام أغلب المواطنين لا يعدو أن يكون مظهرا من مظاهر النفاق الإجتماعي، ولدينا في حزب اليسار دراسات وإحصائيات تؤكد أن سبعين في المئة من السكان لا يعلمون أساسيات دينهم.. بربك هل تظن أن هؤلاء ستصعب استمالتهم للتخلي عن حزب اليمين والتصويت لحزب الوسط واليسار؟!!

ويَسألهُ الإيرلندي في فضول:

- وما طبيعة الإغراء الذي سيغير موقفهم إلى هذا الحد؟..

ابتسم العجوز.. ثم قال وقد لمعت عيناه:

- إنه معدن الثوريوم.. بديل البترول واليورانيوم، ومصدر الطاقة الكفيل بإنتاج الوقود النووي دون أدنى ضرر على البيئة.. لقد اكتشف المنقبون احتياطيا ضخما منه تحت أرض الولاية، كل ما علينا فعله، أن تحتكر شركتنا حق استخراجها واستغلاله.. عندئذ سنزيع نعمان عن الحكم بسهولة..

لم أكن أعلم ما إن كان الرجل العجوز ملحدا أو علمانيا، لكنني تأكدت من انتمائه لحزب اليسار، وأيقنت أن لنعمان التازي أعداء لا يستهان بهم.. فألى جانب أبي الوسطي وأصحابه، يرغب هذا اليساري أيضا في إبعاد نعمان عن سدة الحكم.. أيمن أن يكون نعمان مجرد حاكم متسلق خدع الناس حبا في الحكم والاستبداد؟!.. أم أنه -وكما يبدو للجميع- رجل صالح يُحارب أهواء المنحرفين؟!.. يقولون أن سهام الباطل دوما ما تُسدّد صوب الصالحين؟!.. لكن كل حزب من الثلاثة يرشق الآخر بسهامه، ولا أحد منهم يسلم من الآخر!.. سيل من الاتهامات والشتائم والتهديدات وكل يغني على ليله، لحدّ عجزت معه عن تمييز الذئب من الحمل الوديع.. بيد أنني ميزت عجلا اسمينا في طبق كبير يدخل به ثمانية رجال إلى الخيمة ويضعونه أمامنا والبخار يتصاعد منه مثيرا شهيا.. فتحلق الحاضرون حول الطبق الفضي المستطيل، ومُدَّت الأيدي إلى اللحم تنهشه بافتراس، واختلطت الأحاديث، وتعالّت الضحكات.. ثم صاح

الشيخ عمرو مناديا كهلا هزيلا قصيرا قد علت أسنانه
العلوية شفته السفلى:
- تعال يا حُطِيئة..

فأقبل شبيه القندس مهرولا، وسقط على كتف الشيخ
مقبلا يقول:
- بركاتك يا سيد القوم.. بركاتك يا عمرو بن
كلثوم..

ضحكنا لفعله، وضحكُ من حالي التي انتهى بها
اقتفاء المتشردين إلى موائد المترفين، ثم جلس
الحطِيئة مستندا على كتف سيده، وأخبرنا هذا الأخير:
- إنه صديقي وزميلي "أسامة التسماني" ونلقبه
بالحطِيئة في حيننا..

ثم أمسكه من خده وشرع يجذبه مستظرفا:
- فلتنظروا إلى شكله العجيب!.. بربكم ألا يلائم
وجهه لقب الحطِيئة؟!

فرد الحاضرون بصوت واحد:
- أجل يا سيد القوم..

ثم قال وقد نزع يده من خد الحطِيئة:
- لكنه صديقي ونديمي الذي لا تحلو الولايم من
دونه.. فلتتحفنا بنادرة من نوادرِك يا حطِيئة ..

فأجاب الحطِيئة فورا وهو يجذب قطعة لحم
استعصى عليه نزعها:

- لقد كنت في الحي الهندي اليوم عند صديق لي
هناك، ودعوته إلى هذه الوليمة.. ولما علم أن
الطعام عجل مشوي، سقط جاثيا على ركبتيه
وارتعدت فرائصه وهو يقول مرتجفا: "لا.. لا.. لن
أكل ربّي.."

انفجر الجميع ضاحكين، وضرب سيد القوم على
ظهر الحطيئة حتى هوى برأسه على العجل وقال:
- أضحكنا لله درك..

ثم التفت إلينا قائلا:
- هل أجد معكم نكتا يا أصحاب "وولف"؟
فقفز حمزة من مكانه رافعا سبابته وكأنه في حضرة
أستاذ:

- أنا.. أنا يا سيدي..
فأذن له العجوز قائلا:
- فلتتكلم يا غلام..
ليسرّد علينا حمزة نكتته:

- ذات يوم اشترى رجل حمارا من السوق، ولما أراد
ربطه عند جذع شجرة، فرّ الحمار..

ثم قهقه حمزة وحيدا ونحن ننظر إليه باستغراب..
قبل أن يقهقه الشيخ ضاحكا ويقول:
- إنها نكتة تافهة، لكن تفاهتها مضحكة..

فضحك الحاضرون لضحك سيدهم، واستمر الجميع في الأكل والتناوب في سرد النوادر.. وتوالى الضحكات والقهقهات وكُتِل اللحم تتناقص من العجل المشوي شيئاً فشيئاً، إلى أن استحال إلى عظام.. ثم ابتعدت عن المائدة إلى زاوية من الخيمة واستلقيت أتجشأ متعباً من الأكل، فيما شرعت البقية في التهام الفواكه وأشهى صنوف التحلية..

فرغت الأطباق وجفت الصحون أمام هذه الكائنات التي خُلقت لتفترس.. وفي غضون لحظات يسيرة، دخل علينا خمسة رجال يحملون أقداحاً وجراراً من طين، ظننتُ في بادئ الأمر أن بها لبناً أو ماء.. غير أن استبشار الرجال وسرورهم البالغ بالجرار ذهب بظني بعيداً، وصدق ظني حين صاح الحطيئة قائلاً:

- فلتطوفوا بالأقداح.. حي على النبيذ!..

فرايت رفاقي أسوة بالحضور يقصدون الساقى، ويشربون الكأس تلو الكأس.. يقومون ويجلسون، يترنحون ويرقصون على إيقاع الدفوف.. مع مرور الوقت، لعبت الخمر بعقولهم، فظل بعضهم في مكانه، وتساقط البعض في الأنحاء كأنهم صرعى بدر، أما سيد القوم فكان لا يكف عن القهقهة بمعية الإيرلندي والحطيئة.. فيما قام حمزة الثمل من مكانه وأخذ بيد شاهين السكران ثم أقبل إلي وجلسا بجواري.. إلى أن كلمني شاهين الذي لم يكف عن التحديق بي:

- ليث!.. إنك تبدو صغيرا أيها المتشرد اللعين،
تبدو صغيرا كالسحلية..

قبل أن يلتفت حمزة يمينا ويسارا كمن أضاع شيئا
وهو يقول:

- أين هو ليث؟!.. إنني لا أراه..

فصفعه شاهين على قفاه، وقال بلهجة متقطعة:

- إنه أمامك يا رأس الزبيبة.. لكنه لا يحمل قدحا
في يده!.. رباه!.. ألسن من الشاربين يا ليث؟..

ضحك من حالته المزرية، وأجبتة:

- كلا.. أنا لا أشرب..

ثم مد لي قدحه وجفؤه قد أوشكت على الانطباق:

- فلتشرب يا صاح ولا تخف؛ إن المراقبين لا
يزورون هذه الجزيرة إلا نادرا..

فكررتُ عليه كلامي شاكرا:

- شكرا.. أنا لا أشرب..

وردَّ علي مستهزئا:

- أنت لا تدخن ولا تشرب، فلماذا تعيش إذن؟!.. لا
تقل لي إنك لا تعاشر النساء أيضا؟..

ضحك من سؤاله البليد، وأجبتة وأنا على يقين أنه

لن يتذكر جوابي حين يزول سكره:

- بلى.. لقد كنت متزوجا، لكننا انفصلنا..

فجحظت عيناه في زهول، وخفض رأسه وكأنه تذكر
طليقته التي لا يمل من الحديث عنها.. قبل أن يسألني:

- ولمَ خلَّعتك؟!
- لم تخلَّعني يا صاح.. أنا من طلقها..

ثم تساءل يوسف:

- ولمَ طَلَّقتها؟.. أعجَزْتَ عن إسعادك؟.. أم أنك
عجَزْتَ عن إسعادها؟..

حدجته بنظرة استغراب.. وتغامز الوجدان، وانطلقت
من أنف شاهين ضحكة كالفحيح وهو يقول:

- يا إلهي لا تقل إن المحرك كان ذا جودة سيئة؟..

وأضاف حمزة:

- أم أنه توقف عن الاشتغال فجأة؟..

ليعقب شاهين:

- ربما.. ربما.. كان يصل إلى وجهته قبل أن تنطلق
السيارة المسكينة..

ثم قهقهنا جميعاً مما قاله، وأجبتُ الوجدان:

- لم يكن الطلاق لأي من الأسباب التي ذكرتها..

فرداً بصوت واحد:

- وما السبب إذن؟!

لم أكن على مزاج يسمح بالتفصيل في ذلك
الموضوع، لذلك ارتأيتُ أن أجيبهما باختصار يحول دون
إلماهما بالتفاصيل:

- بعض الأشخاص رائعون وفاتنون كالماثر
السياحية، يصلحون للزيارة فقط لا للاستقرار..

فوجم حمزة وعنقه يقترب حينا ويبتعد حينا من
شدة الشكر.. ثم أمسك برأسه مولولا كالنساء يقول:

- أسمعته ما قاله يا شاهين؟!.. لقد تزوج ليث
بمعلمة سياحية وطلقها!.. يا إلهي!.. فبعد أن
رأينا الزواج من الحيوانات، والزواج من الدمى..
ها نحن نعيش لنرى شخصا يتزوج من الماثر
السياحية!.. لا تقل لي أنها صومعة حسان؟..

أعرضت عنه مبتعدا عن الرائحة التي تفوح منه، ثم
قام ليتبعني، فترنح واختلقت خطاه واصطدم بالحطیئة،
فسقط هذا الأخير على وجهه وتعثر به حمزة وسقط
بدوره؛ لينطلق الكأس من يده ويندلق التبيذ على وجه
شاهين وثيابه.. ظل الإثنان على الأرض وكأنهما تعرضا
لحادثة سير، وقام شاهين من مكانه في هلع وأخذ
يهرول إلى خارج الخيمة بشكل مريب.. فها لي أمره
وخرجت وراءه خوفا من أن يصيبه مكروه وهو في تلك
الحال التي لا يميز فيها بين الحبل والثعبان:

- إلى أين تذهب يا شاهين؟!..

فالتفت إلي وساقاه لا تتوقفان عن الهرولة باتجاه
الشاطئ:

- إلى بحر الله الواسع، سأنظف نفسي من
الخطايا.. سوف أحرق البحر بمن فيه وأكل

سَمَكه المشوي.. اللعنة علي وعلى أمثالي..
عروس البحر بانتظاري..

الختبارات صلاح الدين

"أطفال اليوم أذكى من أطفال الأمس".. عبارة لطالما تكررت على مسامعي وأنا صغير كلما فاجأت الكبار بسؤال لا ينتظرونه، أو بجواب لا يتوقعونه.. وهأنذا أرددها في نفسي وأنا كبير كلما جرى حوار بيني وبين ريم.. تلك الطفلة الصغيرة التي لا تشبه الصغار، تلك الذكية التي اقتبست من أقوالها لروايتي ما لم أقتبسه من كلام الكبار.. يتيمة ترعرت في ذل لا دخل لها فيه وفقدت نصف عائلة يُنظر إليها باحتقار، ومع ذلك لم تستسلم، بل جعلت من مآسيها أدراجا تعتليها بإصرار.. إنها تستحق بما تتمتع به شخصيتها من مقومات، أن تكون بطلة رواية، لا مجرد شخصية من الشخصيات.. غير أن الحكمة التي رسمتها تحول دون أن تكون كذلك، كما يحول بعض المتنمرين بينها وبين الاستمتاع بيوم جميل.. أقصد إحدى زميلات فصلها التي مرت فوقنا بلوحها الطائر يومها، ورمّت لها بفلس وهي تسخر منها بطريقة تتبرأ منها براءة الأطفال:

- التقطيه يا بائعة المناديل!..

نظرتُ إلى وجه ريم الذي احمرّ من الإهانة، وظننتُ أنها ستلتقطه لترجم به تلك الظالمة الصغيرة، أو أنها ستجاهله في أفضل الأحوال، إلا أن أيا من التوقعين لم يحدث؛ حين انحنّت والتقطت الفلس ووضعت إياه في جيبها وهي تبتمس قهرا عما يجتاحها من غضب.. الشيء

الذي أثار دهشتي وجعلني أحرق إليها باستغراب، إلى أن نظرت إلي وقالت:

- ماذا هناك؟.. ما بك تحرق إلي هكذا؟!..
- لا شيء.. فقط استغربتُ ردة فعلك!..
- لا تستغرب يا ليث، سأحتفظ بالفلس إلى أن أرد لها الصاع صاعين.. سأغتني وسأمر من أمامها بأفخر سيارة في الوقت الذي ما تزال فيه عالة على أبيها..
- هممم.. لا شك أنك ستمرين أمامها بأحدث طراز من سيارات "مارتيلي" ويدك مزينة بأبهى ساعة من ساعات "ماكبرايد"..

فضحكت، ونفت كلامي قائلة:

- عندما أصبح ثرية سأصمم ساعتني الخاصة ولن أرتدي "ماركة" لأحد..

عندئذ توقفتُ عن السير، وربتت على كتفها الصغير محدقا إلى عينيها اللتان فضحتا حزنها:

- ريم.. لا تشغلي بالك بهؤلاء المتنمرين، إنهم يغارون من اجتهادك وإصرارك، فلا يجدون سبيلا لمجاراتك..

فردت وفي عينيها نظرات الشموخ والكبرياء:

- إنني لا أحزن لإهاناتهم كما تظن، بل أحب أن أرى وأسمع ذلك منهم..
- ماذا تقصدين؟!..

لِتُجِيبَ قَائِلَةً:

- قبل أن تبدأ في تحقيق هدفك المنشود، اخلق لك قليلا من الحساد؛ فنباح هؤلاء كفيل بأن يشحن عزيمتك كلما مالت إلى الركود..
- من علّمك هذا؟
- تجارب حياتي المتواضعة..

توقفتُ في مكاني وكلي إعجاب بكلامها، وكدتُ أن أخرج مذكرتي من جيب معطفي لأدون قولتها الأخيرة.. قبل أن تقبل نحوي وتجرنني من يدي باتجاه كشك افتراضي وتقول:

- سأبتاع تذكرة لمباراة فريق ولايتنا ضد فريق ولاية "طنجة".. أتريد أن أبتاع لك؟..

سكتَ لهنيهة.. ثم سألتها:

- متى ستقام المباراة؟
- مساء اليوم في تمام السابعة، وستُلعَب في مدينة طنجة..
- طنجة؟.. ستسافرين إلى طنجة لتحضري المباراة؟!..

فانفجرت ضاحكة تقول:

- كلا أيها الساذج.. سوف أشجعهم من ملعبنا الكبير حيث سينقلون أطوارها عبر التجسيم الهولوجرامي، وسوف ينقلون تشجيعنا إلى

ملعب طنجة بنفس الطريقة وكأننا في ملعب واحد..

- آه.. صراحة لا أحبذ مشاهدة المباريات بهذه

الطريقة، أفضل أن أتواجد في الملعب بشحامي ولحامي لا بصورتي وصوتي فقط..

- أم أنك لست من هواة الكرة ياليت؟!..

- بلى يا ريم، لقد كنت لاعبا ومشجعا بارعا عندما كنت في سنك..

- ممم.. كنت مدافعا؟ أم مهاجما؟..

- كنت وسطا هجوميا..

- أكان لك فريق؟

- أجل..

- ماذا كنتم تفعلون حين تتعرضون للهزيمة يا ليث؟..

- كنا لا نرضى بذلك؛ فنشرع في رشق الفريق الفائز بالحجارة..

فضجكت، ثم سألت:

- وعندما تفوزون كيف تحتفلون؟

- نفتخر بذلك، ثم نرشق الفريق الخاسر بالحجارة..

- ولماذا؟!..

- لقد رجما المنتصرين الفائزين، فكيف لا نرجم الخاسرين الفاشلين؟!..

عندئذ قهقهت ريم وهي تمسك بطنها، ووضع أحدهم يده على كتفي؛ لأستدير وأفاجأ بالإمام صلاح الدين وعلى وجهه ابتسامته السمحة التي لا تفارقه، فهممتُ بمسح العرق عن كفي لئلا يصيبه منه شيء أثناء المصافحة، إلا أنه كان أسرع إلى يدي وانحنى على كتفي وقبلها بتواضعٍ تحرّجت منه:

- السلام عليكم سيدي ليث..

أجبتّه وقد أخجلني بأدبه:

- وعليكم السلام ورحمة الله يا مولانا..

في تلك اللحظة استأذنت ريم، وتركنتا بعد أن قبّلت يد الإمام.. وتكلّم هذا الأخير مُطرقاً عينيه وعلى محياه علامات الأسف والاعتذار:

- أنا آسف على الإزعاج سيدي، لقد استوقفتك حتى أعتذر لك عما بذر مني يوم زيارتكم لي رفقة أبيكم المحترم..

ابتسمتُ متعجباً من لباقتّه وأدبه الشديد، واستوضحتُ قائلاً:

- حاشا لله يا سيدي.. لم أفهم قصدك!..

فرد وهو يُدكّرني:

- أقصد الورقة التي أعطيتك إياها..

وضجكتُ لذلك متفهّماً:

- لكنك كنت محقاً يا سيدي؛ لقد نصحتني بالتزام النظافة، ولا خير فيّ إن لم أقبل نصيحتك..

فابتسم، وقال:

- لقد شعرتُ أنني تسرعتُ في تقديم نصيحتي،
حيثُ جاريْتُ رغبتِي في نيل الأجر والثواب دون
أن أستحضر ظروفك أو أفكر في ما إن كانت
نصيحتي ستجرح مشاعرك أم لا.. لقد أغفلتُ أنّ
للنصائح مواطنًا، وأنه من حسن إسلام المرء
تركه ما لا يعنيه..

سكتُ لبرهة وقد اندهشتُ من صراحته، ثم قررتُ
أن أصارحه أيضًا:

- سيدي.. إن الأمور ليست كما تبدو عليه، إنني
متنكر في هذا الهدام حتى تتسنى لي مخالطة
المتشردين وكتابة رواية عنهم..
- أنت كاتب إذن!..
- كاتب هاوٍ.. وأطمح لأن أكون كاتبًا محترفًا يا
مولانا..
- فليبارك الله عملك يا ليث.. أيمكنني أن أسألك؟..
- على الرحب والسعة يا سيدي..
- هل هناك نصيب لله من عملك هذا؟!.. هل هناك
رسالة راقية تزوم إرسالها للناس عبره؟..
- أريد أن أسلط الضوء على هاته العينة من البشر،
على ظاهرة التشرد التي لم يسبق أن نجح
التقدم التقني والرخاء الاقتصادي في القضاء
عليها.. لكن، قل لي.. كيف أجعل نصيبًا لله في
عملي يا مولاي؟..

- إنما الأعمال بالنيات يا ليث.. والإخلاص
الحقيقي يقتضي أن يكون عملك هذا خالصا
لوجهه تعالى، لا رغبة في المال أو الشهرة..

عندئذ ابتسمت ضاحكا، وأخبرته:

- لا تقلق يا سيدي، إنني لا أروم من ورائه مكسبا،
بل على العكس من ذلك، لقد طلقْتُ زوجتي
وبِعْتُ متجري لأجله..

فاختفت ابتسامة صلاح الدين وتغيرت ملامحه،
وجذبني من يدي مبتعدا عن الطريق إلى أقرب حائط:
- مهلا مهلا يا ليث!.. أحقا طَلَّقتِ امرأتك من أجل
الكتابة؟!..

خرس لساني لشوان معدودة وأنا أرقُب نظراته
الجادة.. ثم أجبته وعلى شفاهي ابتسامة لم تكتمل:
- أجل؛ ذلك أنني لن أركز في عملي إن ظللتُ
مقترنا بها..

عندئذ احمر لونه وتقطبت حواجبه، وقال:

- أرى أن الحديث سيطول..

ثم همهم وأردف:

- أيمكنك مرافقتي للمسجد؟.. إن لدي كلاما يجب
أن تسمعه..

- حسنا.. كما تشاء يا مولانا..

بعد أن انتهينا من صلاة العصر وفرغ المسجد من المصلين، استند الإمام إلى المحراب وناداني بصوت خفيض:

- تعال يا ليث..

فقمْتُ مبتعداً عن السارية التي استندتُ إليها، وخطوتُ إليه مطأطأ الرأس متأدباً إلى أن جلستُ أمامه.. ثم انبرى للحديث قائلاً:

- ليث.. إنه ليس من حقي التدخل في أمورك، لكن وجب علي بعد الذي سمعته منك أن أخبرك شيئاً.. وأنت أدري بما تفعله في كل الأحوال..

أجبتُه وقد تأثرتُ بما يبعثه جو المسجد من خشوع:
- فلتفضل يا سيدي، إنه لشرفٌ لي الجلوس معك والحديث إليك..

فاستغفر الله ثلاثاً.. وقال:

- دعني أسألك أولاً.. هل استشرت زوجتك قبل الطلاق؟.. هل صارحتها بالموضوع وأخذت رأيها؟..

سكتُ قليلاً، ثم أجبتُه:

- لا.. لم أفعل..

ليحوّل بصوت خافت، ويقول:

- أرى أنك قد استبدلتَ إنساناً بنزوة الكتابة، وإنه لأمر خطير!..

- أين الخطر في ذلك يا سيدي؟.. صراحة.. عدا عن رغبتني في الكتابة، ما عاد يعجبني سلوك زوجتي النكدي..

- ولو يا ليث.. إن الزواج ميثاق غليظ، وليس لعبة إلكترونية تبدأها وتختتمها وفق مزاجك.. أين الحوار؟.. أين الرحمة؟.. أين الصبر؟.. أين تقوى الله في عباده؟!.. ألا ترى أنه انسياق أناني لم تكثر فيه لمشاعرها؟ ألا ترى أنه استهتار بروح سخرها الله لتسكن إليها؟.. أنسيّت أن الطلاق أبغض الحلال إلى الله؟.. أم أن حبك لنفسك قد أطفاك وأفقدك الإحساس؟..

التزمت الصمت عاجزا عن إيجاد حجة أدافع بها عن نفسي، وتابع الإمام قائلا:

- أخبرني يا ليث عن علاقتك مع الله!..

ترددت قليلا، غير أنني شعرت برغبة في إجابته بالحقيقة:

- إنها مد وجزر يا سيدي، أحيانا أقبل عليه، وتارة أخرى أغفل عنه.. نادرا ما أتخشع في صلاتي، وإن قرأت كلامه عز وجل لا أجد حلاوته في قلبي.. الكل ينصحك ويخبرك عن التقوى وحلاوة الإيمان وبلوغ مقام الإحسان، لكن ما من أحد يريك كيف تحارب أهواءك التي تمنعك من تحقيق ذلك..

عندئذ ابتسم، وقال:

- لو كنتَ راعباً لحَقَّقْتَهُ يا ليث، إنك تتمنى فقط ولا تريد فعل ذلك حقاً..
- وكيف السبيل إلى ذلك؟!..

سكت الإمام للحظات.. قبل أن ينطق قائلاً:

- حسب ما أخبرتني به؛ لاحظتُ أن لك طبعاً مستهتراً ساخراً.. هذا الطبع يكون نابعاً من تضخم الأنا ومن شعور دفين بأفضليتك وازدراءك لمن سواك، وأكاد أجزم أنك لن تتذوق حلاوة الإيمان ولن تبلغ مقام الإحسان ما لم تغلب على أناك، ذلك الوثن الذي سقيته بحبك لنفسك واستخفافك بغيرك، ولا يخفى عليك أن الإنسان لا يؤمن حتى يحب لغيره ما يحب لنفسه.. يا ليث، لكي تكون مؤمناً محسناً عليك أن تعبد الله لوجهه، لا أن تعبد نفسك، وشتان ما بين الأمرين!.. يا ليث، إن علاج حالتك يتطلب منك التواضع والقضاء على أهوائك، فالصلاة وقراءة القرآن لا تثمر في قلب عبد يعبد هواه..

- لهذا السبب لا يخشع قلبي إذن.. وكيف أقضي على أناي؟

- ذلك طريق صعب وشاق وطويل، إنه الجهاد الأكبر الذي لا تنتهي معاركه حتى الممات.. يا ليث إنني عبد مثلك ولا أرى أنني أفضلُك في

شيء، إلا أنني أسبقك بتجارب وأعلم أمورا لا تعلمها.. وإن كنت جادا وصادقا في رغبتك، دلتك على طرق تفتح بها حربك مع نفسك، وتساعدك في التحكم بأهوائك ..

- فلتدُلني يا سيدي..

- اسمع يا ليث.. عادة ما يكون السبب الرئيسي في تضخم الأنا كامنا وراء حبنا للظهور، ورغبتنا في تلقي الاهتمام والمدائح من الآخرين، أو خوفنا من أن ينظر إلينا الآخرون بعين الإزدراء والتحقير؛ الشيء الذي يجعلنا نرفع سقف تعظيمنا لذواتنا لكي تكون منيعة ضد الإهانات وسوء التقدير.. وهذا السلوك يدل على أن الآخرين هم السبب الرئيسي في تضخم الأنا ..

- وما الحل إذن؟!..

- الحل يكمن في عكس المسألة، أن تجعل الآخرين يحتقرونك ويزدرونك حتى تغدو نظراتهم إليك غير مهمة في تقييمك لنفسك، عندئذ ستتحرر من نظرة الغير وسينعدم حبك للظهور، وستربح أول معركة في حربك مع أهوائك..

فابتسمت ضاحكا وقلتُ له:

- ألا ترى أنني الآن أعيش كمتشرد لا يلقي بالا لآراء الآخرين ونظراتهم..

ليُرَدَّ قائلا:

- لكنك تفعل ذلك وأنت تعلم أنك ستعود يوما ما لثيابك الأنيقة وحياتك الهنيئة، ولأنك تظن أن كتابتك للرواية ستجعلك محل تقدير في نظر الآخرين ..

سكتُ وقد أفحمني مرة أخرى.. ثم أردف:

- أتريد خوض غمار التجربة؟.. أم أنك غير مقتنع بكلامي؟..
- بلى أريد..
- سوف أعرض عليك ثلاثة اختبارات، وإن استطعت اجتيازها؛ مررنا إلى التي تليها.. فما رأيك؟
- أنا موافق يا سيدي!..
- اسمع.. إن أخي نعمان سيستقبل شابا يرغب في خطبة ابنته مساء اليوم وسيأتي برفقة عدد كبير من أفراد عائلته، أريدك أن تحرص على أن تأكل من صندوق القمامة أمام أنظارهم، وأن تهرع إليهم طالبا منهم الصدقات، وعندما يدخلون ستدخل معهم وستطلب يد ابنة أخي أمامهم..

وجمْتُ للحظة وانفجرتُ ضاحكا رغما عني:

- إنها إهانة لنفسي ما بعدها إهانة، ولنفترض أنني أكلت من القمامة وطلبتُ منهم الصدقات، أتظن

أن شقيقك نعمان حاكم الولاية سيسمح لي
بدخول بيته..

فابتسم صلاح الدين وأجاب:

- إنه توأمي الذي لا تخفى علي عاداته، لا يمنع
أحدا من دخول بيته.. أعلم أنها إهانة وأعلم أنه
لن يقبل بك خطيبا، وكلانا يعلم أنك ستكون
محل سخرية وتهكم قد تتجاوز الحاضرين إلى
وسائل الإعلام، لكنها الغاية من الاختبار.. عليك
أن تكون قادرا على تحمل الإهانة يا ليث..

سكثُ حائرا، لكن، وبمجرد أن رأيت أن الاختبار
سيخدُم روايتي؛ ابتسمتُ في وجهه قائلا:
- حسنا.. سأفعل..

فقام من مكانه وصافحني، ثم رافقني إلى الباب..
وقبل أن أهم بالخروج قال لي:

- ستحاول نفسك ثنيك عن الأمر بشتى الطرق،
ولكي تحتال عليها ذكَّرها بالقوة التي ستحققها
بعد الاختبارات..

- أي قوة يا سيدي؟!..!

- وأنت ضعيف سيفقد كيائك القابل للزعزعة
أعصابه بأقل الاستفزازات الممكنة، ومع التدريب
ستصبح قادرا على هضم الإهانة وفي حلقك
غصة من الصبر، بعد ذلك ستصبح قويا وسوف
ترد الإساءة بالإحسان، وستذكر عيوبك أمام

خصمك وأنت مسرور مبتسم، لأنك تعلم جيدا
من تكون، و تعلم أن خصومك ما يزالون تحت
أمراضهم النفسية التي تخلصت منها.. عندئذ
ستشعر نحوهم بالرحمة والشفقة، لأنك هزمت
نفسك أولا، ومن هزم نفسه، هزم كل شيء..

كان الطقس الغائم ينذر بمطر وشيك، وكنتُ إلى
جانب تفكيري بما أنوي القيام به، أضع يديّ في جيوب
معطفي وأرْكُل كل ما أصادفه في طريقي من جماد علي
أتخلص من توتري.. كنتُ أعلم أن قبولي لاختبارات
صلاح الدين لم يكن نابعا من رغبتني في محاربة أهوائي،
بقدرما كان نابعا من فضولي لمعرفة الطريقة التي
سيُعامل بها توأمُهُ نعمان وضيوفُهُ متشردا مزعجا.. ما
يعني أن الأهواء التي خرجتُ لأحاربها، هي نفسُها التي
دفعتنني للخروج، وكفى بهذه المفارقة مثالا يُثبت أن
محاربة النفس أمر عسير.. عسير بمقدار ما كنت أضغط
به على نفسي لتتنازل وترضى بالأكل من القمامة، تلك
القمامة التي بحثتُ عنها طويلا عند منازل جيران
"نعمان التازي" وبين أرجاء حدائقهم الخلفية حين تعذر
علي إيجادها أمام بيته.. كنت أضغط على أزرار صناديق
النفايات المثبتة على الجدران مرة تلو الأخرى دون أن
تُفرغ شيئا، وفي لحظة بلغ فيها توتري مداه، شرعتُ في
ضرب شاشة أحدها بنحو هيسثيري إلى أن نطق مجيبه

الآلي وأخبرني أن عمال النظافة قد أفرغوا ما به قبل ساعتين.. فتوقفتُ عن ضربه دون أن أعتذر لذكائه الاصطناعي، وجلسْتُ على الرصيف المقابل لقيلا الحاكم أملا في أن يمتلئ أحد الصناديق قبل قدوم الضيوف..

في تمام الساعة الثامنة، أرعدتِ السماء وأبرقت وجادت بمطر دفعتني غزارته للفرار من مكاني إلى الاحتماء بشرفة بيت نعمان.. وما هي إلا لحظات حتى رن وعاء قمامته وقد تحوّل لونٌ وميضه إلى الاصفرار إشارة على استقباله لنفايات جديدة، وانطلقتُ إليه في لهفة وضغطتُ زره ليُفرغَ على الرصيف عبوات فارغة لرقائق القمح، وعظام دجاج ما يزال عليها قليل من اللحم.. فابتسمتُ وأخذتُ أدفع العظام بقدمي إلى أن صارت أمام الباب مباشرة، ثم جلست تحت المطر منتظرا..

مكثتُ ثلث ساعة على تلك الحال.. قبل أن يُنار محيطي بأضواء قوية قد أظهرت غزارة الأمطار سهاما سوداء تتفتّت على الأرض، وقمتُ من مكاني أحجب مسار الضوء بيدي؛ لينكشف أمامي مصدره، وأرى أسطولا من السيارات الفارهة قد أقبلت لتركن تباعا أمام القيلا.. فحملتُ عظام الدجاج بيمنائي واستندتُ إلى الباب وأنا أقطر ماء، وشرعت أراقب العشرين شخصا الذين ترجلوا من السيارات السبع وهم يُقبلون في أبهة وأناقة تتقي البلبل بمظلات سوداء.. كانوا خليطا من

الرجال والنساء والأطفال، إلا أن اهتمامهم كان مُنصبًا على شباب عشريني وسيم يُخفّونه بالابتسامات والدعوات؛ الشيء الذي أكّد لي بما لا يدع مجالاً للشك أنه الفتى الخاطب.. فهرعتُ إليه راكضاً، وتوقّفتُ على بعد سنتمترات قليلة منه وأنا أنْهَش اللحم عن العظام نهشاً مُنفراً تعجبَ منه بعضهم وأعرض عن النظر إليه آخرون وهم يُيعدون أولادَهم.. قبل أن أمدَّ يديّ إلى الشاب مستجدياً وفي عيني نظرة الاستعطاف:

- أكرمني بقليل ممّا منّ الله به عليك..

فاستجاب الشابُّ ومدَّ يدهُ إلى جيبه.. غير أنّ سيدة -رجّحتُ أنها أمه- حالت بذراعها بيننا وابتسمت في وجهه بنحوٍ فيه من الإشارة ما فيه، ثم عمدت إلى حقيبتها الفاخرة وأخرجت منها ورقة من فئة خمسين ودسّتها في يدي هامسة:

- تفضّل.. عفا الله عنك..

ابتعد الشاب عني نزولاً عند رغبة أمّه التي خشيّت احتكاك هندامه بي، وتجاوزني الوفدُ إلى بوابة المُضيف التي فُتحت استقبالا لهم، فيما ترددتُ في مكاني للحظات في أمر الدخول من عدمه.. وحالما تذكرتُ أن الحاكم نعمان لا يستعين بحرس شخصي كبقية الحكام؛ انطلقتُ مقتفياً بالضيوف، ودخلتُ في غفلة من البواب الذي انشغل بمصافحة الأطفال، ثم تعمّدتُ أن أسبق الجميع إلى باب القيلا مروراً خلف شجيرات نمت على

جنبات الممر.. قبل أن أدخل الدار التي لم أصادف أحداً عند بابها، وأدلف إلى بهوها وقد اصطفيتُ مكاني على أريكة من أرائكه الحريرية، وأتكنى دونما قلقٍ من تبليها بما جمعته ثيابي من مياه..

دخل الضيوفُ البهو جماعات وأفراداً، وتفاوتت انطباعاتهم حول تواجدي وطريقة جلوسي ما بين ضاحكٍ متعجب وعابسٍ مستنكر ومُعْرِضٍ مبتعد، بينما سرحتُ بخيالي متكهنا بما سيبدو على وجه نعمان التازي من تعابير لحظة رؤيتي وما سيصدره عنه من ردود.. كيف سيعاملني هذا الحاكم الذي يحبُّ التجول في الأسواق ومخالطة الناس في المقاهي دون حرس أو سلاح؟.. كيف ستكون ردة فعله وهو الذي لا يتحرج من الجلوس على حافة الرصيف وتناول الشطائر؟.. هل سيوبخني وهو الذي لا يترفع عن أخذ قيلولة في أحضان الحقائق العامة؟.. أم سيطرمني من بيته وهو الذي لا يرفض دعوة من دعاه؟.. هل سيؤثر تخصصه في الأنثروپولوجيا وعلم النفس على ردة فعله؟.. أم أنه سيلتزم بالأعراف والتقاليد التي لا تقبل الغرباء في حفلات الخطوبة؟.. وما هي إلا دقائق معدودة حتى دخل علينا متأنقا في "جبادور" قد تناسق بياضه الناصع وسواد شعره الفاحم، وأخذ يرشُ العطر على الضيوف بقمقم نحاسي قد أشعَّ معدنه بضوء الثريا وهو يرحب بهم مبتهجا، ثم قام الشاب الخاطب من مكانه، وبادر إلى تعريفه بالحاضرين الذين انهالوا عليه بالتحايا والقبل

والمصافحات فيما راقبت عن كذب ابتسامته التي تتمدد لكل فرد يسلم عليه، ويده التي تغدق بالعطر على أيادهم ورؤوسهم.. إلى أن حان دوري ووقفتُ له متعجبا من التطابق التام بينه وبين توأمه صلاح الدين، ذلك التطابق الذي أزال التوتر عن نفسي وشجعتني على التصرف بارتياح وروية وكأنني أمام أخيه، فشرع يرشني بالعطر دون أن يتخلى عن ابتسامته أو أرصَدَ على ملامحه انطبعا عن قُبْح هيأتي، ولما لاحظ سكوت الشاب؛ سأله قائلا:

- وهذا الضيف الكريم من يكون؟!..

فنظر إليه الشاب والاستغراب يملأ نظراته ونبراتِه:

- لا أعرفه يا سيدي!.. لقد صادفناه عند الباب..

ليتوقف نعمان عن الرش، وتقلص ابتسامته، ويتفحص هيأتي بنظراته الثاقبة وهو يسألني:

- من أنت؟.. ومن دعاك؟..

كف الضيوف عن الكلام كبارا وصغارا وعم الصمت وحاصرتني العيون، وسكتُ لهنيهة وأنا لا أدري ماذا أقول.. قبل أن يكرر نعمان سؤاله وقد اختفت ابتسامته كليا:

- سألتك من أنت؟!..

عندئذ اضطررت إلى الجواب، وألقيتُ بالكلام على عواهنه:

- أنا المتشرد ليث.. جئتُ إليك طلبا ليد ابتتك..

ففرّت من الشاب ضحكة قد انتثر لها لعبه، ووجم
الحاكم مبهوراً، وتتابع الضحكات من أفواه الحاضرين
وهي تتحول إلى هاهآت وقهقهات، وركض إلينا طفل
وهو يخبر نعمان بعفوية الصغار:

- إنه صعلوك متسول يا سيدي؛ لقد رأيته يأكل من
القمامة..

لم ينل مني كلام الصغير ولو بقليل من الحرج، ولم
يُشعِرني وصفه لي ولو بذرة من الانتقاص؛ ذلك أن ما
سمعتُه من الإساءة والاحتقار طوال فترة تنكري قد عوّد
نفسي على الإهانة والتجريح، وكأنها عضلات تمزقت من
كثرة التدريب؛ فنَمَت، وما عادت تُحس بالألم وصارت
أكثر قوة وتحملاً.. لأدرك حينها أن بعض المشاكل لا
تستحق أن نبذل جهداً للتفكير في حلها، وأنه يلزمها
بعض الوقت فقط لتصبح أمراً عادياً يسهل التعامل
معه.. لكن نعمان فعل شيئاً لم يكن بالحسبان حين ابتسم
في وجهي مجدداً وطلب مني الجلوس:

- اجلس حتى ننظر في أمرك..

ثم نادى بصوته الجهوري ابنته قائلاً:

- ليلي!.. يا ليلي!..

وكما كنتُ منتظراً، دخلت ابنته تمشي على
استحياء.. كانت بيضاء زهراء، تغض بصرها وتمسك
بطرف خمارها الأسود الذي زادها بياضاً.. وفور أن
وقفت أمامنا امتدت ابتسامة الشاب لأمتار واحمرت

خداه كالطماطم، قبل أن تُلقِي بنظرة خاطفة عليه وهي
تبتسم خجلا، ويسألها أبوها بلطف يُظهر حبه لها:

- هل تعرفين هذا الشاب يا ابنتي؟!..

طَرَفَتِ إلَيَّ الفتاة بعينيها الأخاذتين، ثم أجابت وهي
تُطرق رأسها مجددا:

- لا أعرفه يا أبي، ولم أره من قبل..

فضحك نعمان وهو ينظر إلي، ثم سألها مرة أخرى:

- لقد جاءنا يطلب يدك، فماذا تقولين؟..

ابتسمت الفتاة، وتهاومت النساء، وقهقهه رجال من
الحاضرين.. ثم نطقت قائلة:

- لن أقبل.. يستحيل يا أبي..

عندئذ رفع حاجبيه وابتسم متأسفا ولسان حاله
يقول ما باليد حيلة.. ثم وضع يده بين منكبي، وساقني
إلى خارج البهو.. ليكلمني على انفراد قائلا:

- يا رجل لقد استغنيْتُ عن الحرس لئلا يكون

بيني وبين الناس من يُهينهم باسمي، وليس لكي

تجتري وتقتحم عليّ بيتي دون إذني.. وعلى

الرغم مما فعلته جاريُّك في رغبتك، وأخرجتُ

بنتي الوحيدة أمام ضيوفها حتى تسمع وترى

بأمّ عينيك استحالة طلبك.. لكن، وعلى كل حال،

إن شئت البقاء لتناول العشاء فمرحبا..

خفضتُ رأسي ضاحكا مني، وأحسستُ أنني بين هذه
العائلة وضيوفها كمَثَلٍ وسخٍ حشر نفسه بين الأظافر
ولحمها.. فصارحته قائلاً:

- لقد انتظرتُ أن تُهينني بالطرد والألفاظ
الجارحة، لكنك أهنتني بلطفك وحسن تعاملك..
لا يا سيدي لن أقعد للعشاء؛ يستحيل أن أقبل..

ثم تركته وانصرفت.. فيما ظل يحدق إلي بعيني
عالم نفس خبير..

ما بين الأربعاء 29 مارس إلى الثلاثاء 25 أبريل 2051 ..

عادة ما تُطلق لفظة الإرهاب على التفجيرات التي تأخذ حيوات الناس أو بعضا من أطرافهم وأملاكهم بغتة، إلا أن هذا المعنى لا يستقيم في نظري، ذلك أن هذه الأعمال لا تزرع الرهبة في النفوس بقدر ما تغرس فيها الحقد النابع من الآلام.. فحين تزرع قنبلة وتهرب لتفجرها من بعيد أو حين تهجم بسلاحك على من لا سلاح لهم، لا يعني أنك تملك شيئا من الهيبة أو التهيب، بقدرما يعني أنك وغد جبان يخشى المواجهة ويُفضل التخريب.. فكيف تسميه إرهابا وتخويفا وأنت تأخذ أرواحهم في غفلة لا تسمح لنفوسهم بردة فعل أصلا؟.. وكيف تسمي نفسك مُرهباً والجميع يعلم أنك جبان لا يتشجع إلا من بعيد أو من وراء حجاب؟!.. لقد ولى مفهوم الإرهاب مع فرسان العصور الوسيط ومن قبلهم، أولئك الشجعان الذي يخوضون المعارك بالسيوف والدروع وجها لوجه، أولئك الذين يُرهبون أعداءهم حقا ولا يقتلونهم غدرا.. أما هاته الجيوش التي تدّعي القوة في زماننا لا تتشجع على النزول لأراضي الحروب إلى بعد أن يتم دكّ المدن المستهدفة بالطائرات والصواريخ، هذا إن لم يرسلوا جنودهم الآليين بدلا منهم.. وحتى أولئك الذين يفجّرون أنفسهم مضحين بأرواحهم لا يُصنّفون في خانة الشجعان دائما، وإنما لجأ أغلبهم لذلك حين بلغ به الضعف مدى عجز معه عن مواجهة واقعه؛

فاختار الانتحار هروباً منه، ظناً أنه قد أَرْضَى ربه.. وإن
دققنا بحثاً في الأسباب؛ فسندرك أن دافعه هو الفقر
والتهميش الذي طاله في حياته ودفعه لرد الاعتبار أمام
محيط لا يُقيم له وزناً، والدليل على ذلك أن أغلب
الانتحاريين من الفقراء، فيما يمارس أغنياء الإرهابيين
-على حد زعمهم- الدعاية وتوجيه الأوامر إلى من غُرِّرَ
بهم من الانتحاريين..

عزيزي القارئ، إن هذه الفقرة السالفة التي جاءت
تقريرية مباشرة لا تتضمن -بالضرورة- رأيي، وإنما
لأضعك في السياق وأذكرك بما يروج في السوق من آراء
وما يسود فيها من تحليلات، قبل أن أخبرك فيما بعد
بسرّ قد غاب عن أغلب الذين يصدقون ترهات الإعلام..
والشيء الذي دفعني لذكر هذا، هو التفجير الذي قام به
أحد الانتحاريين اليساريين -كما ورد في وسائل الإعلام-
أمام المقر المركزي لحزب اليمين صباح يوم الأربعاء،
والذي خلف عشرات الجرحى منهم اثنان في حالة
غيوبة.. هذا الخبر صدم الناس وخلف استهجاناً ملاً
الشوارع بالمظاهرات، سيما وأن الولاية كانت على
قطيعة مع ما يسمى "بالأرهاب" لعشرات السنين، حتى
أبي الذي يتوقع كل شيء من أي شيء، مكث أمام
التلفاز مشدوهاً مصدوماً مما حصل وهو يردد:
- مستحيل.. مستحيل..

أذكر أنني أغلقتُ مسودتي ووضعتُ القلم عن يمينها،
ثم نهضتُ إليه ووضعتُ يدي على كتفه قائلاً:

- وما المستحيل في ما حدث يا أبي؟ لطالما عانى
العالم من هذا الداء العضال..

ثم التفت وهو ينظر إلي شزراً:

- من المستحيل أن يقوم يساري بتفجير نفسه!..
إن هؤلاء القوم يحبون الحياة ويحيون على
النضال..

- لكنك من الوسط يا أبي.. وما أدراك بالتغييرات
التي تطرأ على سياساتهم وراء الغرف
المغلقة؟!..

فقام من مكانه في غضب لا يملكه إلا نادراً وقال:

- أنا أعرف اليساريين جيداً ولي علاقات وطيدة
مع قياداتهم!.. حتى أن هذا الانتحاري الذي فجر
نفسه حديثاً الانضمام إلى الحزب ولم يتشبع
بعد بأفكاره، اللعنة على غبائه!.. بسببه تم اعتقال
نصف الحزب!..

- وماذا كنت تنتظر يا أبي؟.. أن يستقبلوهم بالتمر
والحليب؟.. سوف يُحقَّقون معهم وسيُخلون
سبيلهم حالما تتبين براءتهم..

لقد استغرب أبي أن يقوم يساري بالانتحار، بينما
أطرقْتُ مستغرباً فكرة الانتحار من أساسها؛ لأقول لأبي:

- ما دام هؤلاء يملكون الشجاعة على الانتحار،
فلم لا يحاولون سرقة بنك على الأقل؟!.. ما
أغبى هؤلاء القوم!.. وما أسهل التلاعب
بعقولهم!..

لم يلتفت أبي ولم ينطق، وتابع مشاهدة النشرة
الإخبارية في زهول يثير الاستغراب، فيما شعرتُ بضيق
في صدري من التفكير في هذه الفاجعة المؤلمة وارتأت
زيارة صلاح الدين ليخفف عني بما يملكه من بصيرة
وحكمة.. قبل أن يرن هاتف البيت، وأعمد إلى ملمس
شاشته مستقبلاً المكالمات:

- السلام عليكم..

- وعليك السلام يا ليث..

بدا الصوت مألوفاً لكن ذاكرتي خانتني، فسألت:

- عفوا.. من معي؟..

ليزّد المتكلم وفي نبراته شيء من الضحك:

- معك رشدي بن ميمون.. الرجل الذي بعته
المحل..

عندئذ ندت آهة مني:

- آآاه.. مرحباً سيد رشدي كيف حالك؟..

- الحمد لله يا ليث.. كيف تسير أمورك هناك؟!..

- الحمد لله على كل حال، إنها تسير كما قُدر لها
أن تسير..

فضحك من قلبي، وسكت قليلاً.. ثم قال:

- قل لي يا ليث.. هل ولجتَ إلى بيانات حاسوب المتجر ليلة أمس؟..

فاجأني سؤاله، وأجبته مستغرباً:

- لا!.. لم أفعل!.. آخر مرة لمست فيها حاسوباً كانت منذ شهر!..

فهمهم.. ثم قال:

- لقد اخترق أحدهم الخادم المركزي وحمل الأرشيف الخاص بكاميرات المحل، ثم قام بحذفها..

سكتُ واجماً للحظة.. ولما تذكرتُ أنني عطّلت الكاميرات قبل إحراقي للمتجر؛ سألته قائلاً:

- ولم يفعل أحدهم عملاً كهذا؟..

فرد مجيباً:

- لا أدري.. اسمع يا ليث..

- نعم..

- عندما أخبرتني بتضرر الطلاء؛ علمتُ أنك من تعمد إحراق المتجر، وبناء على ذلك شككتُ في كونك من اخترق نظامه لتمسح دليل الإدانة..

لأضحك من كلامه، وأجيبته:

- لنفترض أنني أحرقته عمداً، لماذا سأملكث لثلاثة شهور قبل أن أمسح شرائط الإدانة؟.. هل تظنني غيباً لهذا الحد؟!..

- لا يا سيدي.. فقط أطلعتك على ما دار في ذهني.. وإن لم تكن أنت من اخترقه، فاعلم أن هناك من يتربص بك أو بي، فلا أحد غيرنا له علاقة بالمتجر..
- أشكرك على التحذير يا سيدي.. كن متأكدا أنني لا أملك أعداء ليتربص بي أحدهم، أما الشرائط فلا أرى أنها تنفع أحدا، إذ لا تحتوي إلا على مشاهد الزبائن ومعاملات البيع والشراء..
- هممم.. لكن.. خذ حذرك في كل الأحوال.. إلى اللقاء يا ليث..
- إلى اللقاء سيدي.. شكرا على المكالمة..

كان مستحيلا أن أمكث في البيت وأبي الغاضب ينشر طاقته السلبية بين أرجائه.. لا أنكر أنه لطيف ساخر في أغلب أوقاته، لكنه بمجرد ما ينسلخ عن ظرافته؛ يتغير لرجل مزعج لا يعرفنا ولا نعرفه.. فكان من الأفضل لي ولقريحتي التي تطلب السكون أن خرجتُ من البيت قاصدا صلاح الدين، وانحرفتُ إلى طريق السوق بعد أن استحال المرور من الطريق الرئيس الذي اكتظ بَرَّةُ بالمتظاهرين من أنصار اليمين وازدحم جوه بلافتاتهم الطائرة.. وفور دخولي السوق العتيق، انتبهت إلى تُجَّاره وباعته الذين تركوا دكاكينهم وتحلقوا في جماعات متفرقة على طول أروقتهم وهم يحملون أظرفة وأوراقا.. فظننتُ أن ما يحملونه لا يعدو أن يكون سوى منشورات فرقها المتظاهرون، إلا أن ما التقطته أذناي من كلامهم وضحكاتهم؛ محا ظني، وأثار فضولي لمعرفة الحكاية؛ فتوجهتُ إلى باطن السور حيث يجلس الرفاق، ووجدتهم على حال التجار، يقفون في زمرة وفي أياديهم الأظرفة والأوراق.. كان الأربعة يضحكون تباعا وكانت ريم تتوسطهم وتتناوب على النظر إلى أوراقهم.. فاقتربتُ منهم ملقيا السلام، وردوه علي.. قبل أن يبادر حمزة إلى سُؤالي قائلا:

- لا تقل لي أن لك أجدادا من المغول والتتار أنت الآخر؟

ابتسمتُ مستفسرا:

- عمّ تتحدث؟

فردّ قائلا:

- ألم تتوصل بتحليل حمضك النووي؟..

أجبتّه نافيا:

- لا..

ثم أخبره شاهين:

- لا أعتقد أنهم أخذوا عينة من حمض ليث، لم

يكن بالولاية أثناء إجرائهم ذلك..

فاستفهمتهم عما يحدث قائلا:

- هلا شرحتم لي ما يقع؟!..

ليُجيب الإيرلندي موضحا:

- لقد طالب مجلس الأحوال المدنية الساكنة

بتقديم عينة من حمضهم النووي حتى يتم

التعرف على أصول كل فرد من أفرادها..

وأسأله مستغربا:

- وما الحاجة إلى ذلك؟!

فأجاب وهو يعيد الورقة إلى الظرف:

- إنه إجراء يهدف إلى الحد من العنصرية، فحالما

يدرك الناس أنهم من أصول مختلطة يتلاشى

تعصبهم للأصل الواحد.. انظر إلى هؤلاء من

حولك، كم من عربي متعصب اكتشف أن له

أصولا أمازيغية وكم من أمازيغي متعصب

اكتشف أنه عربي..

ثم صاح حمزة:

- رباہ!.. أنا إسباني برتغالي بنسبة سبع وثلاثين بالمئة!.. ونيجيري بنسبة خمسين بالمئة!.. وعربي بنسبة ثلاثة عشر بالمئة!..

وجلس شاهين يقول:

- من كان يظن أنني إغريقي تتاري إسكندنافي؟.. اللعنة على المظاهر الخداعة!..

فيما استمر شفيق في مقارنة كشفه بكشف أخته وهو يقول:

- نحن عربيان أيبيريان!.. وتركيان بنسبة ضئيلة!..

قبل أن تحمل ريم علب المناديل عن الأرض، وتتأبط بعضها وهي تقول:

- لم يسبق لي أن كنت عنصرية قط.. العنصرية دركة من دركات الغباء تمنع الناس من أن يدركوا أن تغير الألوان مجرد اختلاف في درجات الميلانين، وأن تغير اللغات مجرد اختلاف في الأصوات والكلمات..

كنتُ أتوقع سماع أحاديث حول الانفجار، بيد أن انشغال الجميع بنتائج كشفهم حال دون ذلك، حتى عندما أقبلت ريم وتأهبت للحديث معي؛ ظننت أنها ستسألني حول الموضوع، لكنها تجاهلته تماما وقالت:

- ما رأيك بنتيجة المباراة؟ ..
- أي مباراة؟ ..

- فأملت رأسها وهي تقطب حاجبيها:
- مباراة فريقنا وفريق ولاية طنجة.. لا تقل أنك فوتت مشاهدتها؟!..
 - مع الأسف!.. لم تتسن لي مشاهدتها..
 - فسكّنت تكتّم غيظها.. إلى أن قالت:
 - خيرا فعلت، ويا ليتني فعلتُ مثلك..
 - لم؟
 - لقد انهزم فريقنا بثلاثة أهداف لصفر..
 - أووه.. إنها هزيمة ثقيلة يا ريم..!

ثم قالت بانفعال أكبر:

- لقد حرّمنا الحكم من ضربة جزاء واحتجّ الفريق
- لعشرة دقائق على ذلك.. لكني وبالرغم من ظلم
- الحكم أطالب بتغيير عناصر فريقنا..
- لماذا؟!.. للتو ذكرت تعرّضهم للظلم!..
- ولو يا ليث.. قد يحرمك الحكم من ضربة جزاء،
- لكنه لن يمنعك من الركض إلى المرمى وتسجيل
- الأهداف إن أردت ذلك حقاً.. فليذهب اللاعبون
- المتخاذلون إلى الجحيم!..

ضحكت من قولها، وشرعت تنظر إلي بشيء من
الريبة، إلى أن تحول عبوسها لابتسامة مأكرة، وقالت
هامسة:

- لقد سمعت حمزة يتحدث عنك، لكنني لن أخبرك
- بما قاله لكي لا تنزعج..

أثار كلامها فضولي حين خشيت أن حمزة قد اكتشف أمري، ثم نظرت إلى الرفاق الذين انهمكوا في الحديث، واقتربتُ منها قائلاً:

- ما عدت أكثرث لشيء في هذه الحياة يا ريم، ولا أعتقد أن هناك أمراً يستطيع إزعاجي..
- مممم.. أئن تخبره أنني من أخبرك؟!..
- وهل كتبوا على جبهتي أنني نام يا ريم؟..
- حسناً سأخبرك.. لكن فلننصرف من قريبهم أولاً..

ابتعدنا عن الرفاق ودلفنا إلى رواق العطارين، ثم تنحنت ريم وقالت تبتسم:

- قال حمزة إنك عسكري قناص وإن زوجتك خلعتك لذلك..

فانفجرتُ في وجهها ضاحكا، وقلْتُ وأنا لا أتوقف عن الضحك:

- وما العلاقة بين هذا وذاك؟.. منذ متى كان القنص عيباً وأنا لا أدري؟..

سكتت الطفلة قليلاً، وأجابت بعد تفكير قصير:

- لا أدري، ربما لأن القناص إنسان جبان يختبئ محتمياً ببندقية ليقتل الناس غيلة.. ولعل زوجتك كرهت ذلك.. ألا يبدو هذا سبباً كافياً؟..

توقفتُ عن الضحك متعجباً من تحليلها، ثم أجبتها:

- القناص البارع يستحيل أن يكون جباناً، لأنه يعلم تماماً أن طلقاته التي لا تضع سئسقط المزيد من القتلى، وهذا يتطلب شجاعة كبيرة..
- خرس لسان الصغيرة وقد أدركت المغزى من الجواب، ثم أردفت قائلاً:
- في كلامك جزء من الصواب يا ريم لكنه لا يخص القناصين فقط بل كل الذين يحملون السلاح..
- ما هو؟..
- إنه جزء من الجبن لا يمكن إنكاره.. أتعلمين ما قاله مخترع المسدس عند انتهائه من اختراعه؟..
- لا يا ليث.. ماذا قال؟..
- لقد قال: "الآن يستوي الجبان والشجاع".
- فظهرت على وجهها الصغير علامات الاستيعاب، وأضفت قائلاً:
- لقد تركت المهنة العسكرية قبل الزواج بسنوات.. أما انفصالي عن زوجتي فكان لأسباب فكرية..
- فأطرقت رأسها وهي تسير ببطء دون أن تنطق، ولمّا لاحظت شرودها؛ مسحّت على رأسها بلطف واستوقفتها:
- ماذا هناك يا ريم؟!.. فيم تفكرين؟!..

فرفعت رأسها وأجابت وهي ما تزال تنظر إلى الفراغ:

- دائما ما أسمع عن الطلاق الذي ينتج عن الاختلافات الفكرية.. لكن ألا يمكن للودّ والحب أن يُبقي على الزواج رغما عن ذلك؟..

سكتُ لهنيهة وأنا أتأمل الحيرة في عينيها البريئتين، ثم حاولتُ تبسيط الجواب قدر الإمكان:

- اسمعي يا ريم.. هناك أسباب أخرى تُصعّبُ تقبُّل الاختلاف وتمحي معها الحب شيئا فشيئا.. وما هي؟!..

- الملل.. الفتور.. النكد.. وهناك أسباب أخرى يلزمك أن تكبري لكي تستوعبيها..

- فلتشرحها لي إذن.. لا تستهن بعقلي يا ليث.. لن أفلح في ذلك مهما حاولت.. الأمر أشبه بقيادة سيارة..

- هلاّ فسرّت قليلا؟..

- إن الحديث عن الزواج جميل كمنظر سيارة رائعة، لكن تجربة الزواج أشبه بقيادتها.. إنه تطبيق ميداني يحتاج المعرفة والتدريب والتعرف على مخاطر الطريق..

فقفزت الصغيرة من مكانها واعترضت طريقي وهي تسألني بذات النظرة البريئة:

- ليث.. أود أن أسألك عن قولة كانت تكررهما
المرحومة أمي على مسامع المرحومة أختي..

- ما هي؟..

- كانت تقول لها: "لأنك تمضين وقتك في
مشاهدات مسلسلات الحب الطويلة؛ تبحثين عن
الحب في كل وجه وسيم تصادفينه على
الطريق، وحالما يخيب ظنك وتفشلين؛ تشرعين
في شتم كل الرجال.. يا ابنتي لا تشتمي الرجال،
بل اشتمي مسلسلات الحب الطويلة".. أصحيح
ما قالت أمي؟..

فانفجرتُ ضاحكا.. وقلت لها موافقا:

- أجل يا ريم ما قالت أمك من المسلّمات التي لا
يُمكن إنكارها..

في تلك اللحظة عبست ريم كامرأة خاب ظنها في
الحياة.. فتأملتُ حالها مُشفقا، ثم حملت عنها بعضا مما
تحمله وأنا أقول:

- حسنا يا ريم سأعلمك قاعدة.. لا أدري إن كنتِ
قادرة على فهمها أم لا، لكن ضعها حلقة في
أذنك وتذكريها دائما..

لثُسلطَ علي تركيزها كقطعة لمحت ما أثارها،
وأستأنف ناصحا:

- تمضي المرأة حياتها بحثاً عن الرجل الذي
يستحقها كجائزة، فيما لا يمانع الرجال أن
يحصلوا على العديد من الجوائز..

سكتت الصغيرة بنحو يبيدي عدم فهمها، لكنها ما
لبثت أن ضحكت وقالت:

- ما دمت تنصحي فلا أشك أنك شخص طيب يا
ليث.. فلتذهب طليقتك إلى الجحيم إذن ولا
عزاء لها ..

عندئذ انفجرت ضاحكا وأخبرتها مما زحاً:

- منذ أن عرفتكِ وأنت ترسلين الناس إلى الجحيم
بلعناتك، يوماً ما ستملئنها وسيتصلون بك
لِتَكُفِّي عن إرسال المزيد..

انتظرتُ خلو المسجد بعد صلاة الظهر، ثم توجهتُ
إلى المحراب حيث يجلس صلاح الدين.. أذكر أنه كان
يحمل القرآن بين كفيه ويرتله في خشوع، إلى أن انتبه
لقدومي، ثم أغلقه بهدوء وقام إليّ يُصافحني في سرور
تألق في أسنانه الشديدة البياض:

- أهلاً يا ليث.. أسعدني قدومك!..
- بل أنا السعيد في حضرتكم يا شيخنا..

ثم عاد ليجلس في مكانه مبسملاً، وطلب مني قائلاً:

- فلتتفضل سيدي.. كيف حالك وحال الكريم
أبوك؟..

فجلستُ أمامه وأنا أجيب:

- الحمد لله سيدي.. لكن أبي منزعج بشدة من
التفجير!..

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

فأمسك عن الكلام وشرد بناظريه إلى الأرض قليلا،
ثم قال:

- علينا أن نؤمن بشر القدر، ونؤمن بأن الله يفعل
في ملكه ما يشاء.. لقد غضبتُ لذلك غضبا
شديدا لم أجد له حلا سوى اللجوء إلى تلاوة
القرآن..

كان يتحدث متأثرا بما حدث، وكادت عيناه أن تذرفا
الدموع لولا أنه ابتسم قهرا وغير الموضوع:

- أخبرني يا ليث.. ماذا فعلت بخصوص ما طلبته
منك؟!..

فابتسمتُ ضاحكا وأنا أجيبه:

- نفذتُه بالحرف الواحد يا سيدي.. أكلتُ من
القمامة واستجديت المال وطلبتُ يد ابنة أخيك
أمام أنظارهم..

أصغى إلي بانتباه وهو يشبك بين أصابعه، قبل أن
يكشف عن ابتسامة ويسألني:

- وكيف وجدت الأمر في نفسك؟..

- مرحا مُسلياً.. ظننت أنني سأشعر بالإهانة، لكن ذلك لم يحدث!.. ربما لأنني اكتسبتُ تجربة من تنكري كمتشرد، أو ربما لأن أخاك كان لبقاً لطيفاً معي..

فاختفت ابتسامته واحتدَّت نظرتَه وهو يقول:
 - طباعك الساخرة التي تترقّع عن جدية الأحداث تمنعك من اكتناه المعاني المرجوة من الاختبارات، عليك أن تتعلم بأن الحياة ليست مزحة يا ليث..

- وما ذنبي؟!.. هكذا أنا.. وهكذا خلقت..
 - كلا يا ليث، لم تُخلق كذلك، بل تظافرت مجموعة من الظروف لتصنع منك ما أنت عليه الآن.. إن كل منظر شاهدته وكل صوت سمعته وكل سطر قرأته وكل شخص قابلته قد أثّر في تكوين شخصك بنسبة من النسب وبشكل من الأشكال.. أنت شخص عبثي يا ليث، وعليك أن تتعلم الخوف لكي تتخلص من العبث..

- ولمَ يجدر بي أن أخاف من الحياة؟!..
 - لا أتحدثُ عن الحياة.. بل عن الخوف من الله..
 - وهل يحتاج الخوف من الله إلى تعلُّمٍ يا سيدي؟!..

- أجل يا ليث.. أنت إنسان وُلد وعاش ميسوراً فأدركتَ بما معك من النعم أن الله رحيم جميل، وفاتك أن تُدرك أن الله ذو بأس وعقاب شديد؛

فترعرعتَ ساخرا عبثيا.. كلا يا ليث، عليك أن
تدرك المعنيين كليهما حتى يتوازن كيائك..

تمعنثُ في غُمق كلامه صامتا، وتابع قائلا:

- ما رأيك في اختبار قاسٍ تتعلم من خلاله بعضا
من الجدية؟..
 - أنا رهن إشارتك يا سيدي..
 - هل أنت متأكد؟ ..
 - أجل..
 - إذن فلتكن رجلا، ولتكن على قدر كلمتك..
 - سأدلك على عنوان رجل يلقبونه بالحدّاد،
وسأكلّمه بخصوصك..
 - وما هي تعليماتك لي بخصوص الاختبار؟..
- فابتسم ضاحكا:
- لا تكثرِ للتعليمات، سيتكلف الحداد بكل
شيء..

قصدتُ الحداد بعد يومين.. وطرقْتُ باب كوخه
المنعزل في بادية المدينة بشيء من الريبة.. قبل أن
يُفتح الباب القصديري ويظهر أمامي رجل عريض فارع
الطول بلحية كثيفة تلامس سرّته.. فنظرتُ إلى رأسه
الأصلع الضخم، ورمقني بعينه الغائرتين اللتين كانتا
كحفرتين وسط كرة من العجين.. ثم خاطبته سائلا:

- أهذا منزل الحدّاد؟..

فأوماً برأسه ورد بصوت عميق غليظ النبرات:
- أجل.. أنا الحدّاد..

ثم ابتعد إلى يسار الباب وأشار إلي بالدخول:
- أدخل..

فدخلتُ، وتنخّم بقوة تردد صوتها في حلقه، قبل أن
ييصقّ إلى الخارج ويغلّق الباب وراءه وهو يقول:
- أنت ليث.. صحيح؟..

انهمكتُ في استكشاف أثاث بهوه البسيط وأجبتّه
دون أن ألتفت إليه:
- نعم.. أنا ليث..

لكنّ ضحكة فرت منه أجبرتني على الالتفات:
- لماذا؟!.. ماذا هناك؟..

فأجاب وهو يخفي فمه بكفه لئلا أرى ابتسامته:
- ألا تدري ما الذي ينتظرك؟!..
لأقول له ضاحكا:

- لا أدري.. لكن مرحبا بالأقدار..

ويعرض عليّ العودة من حيث أتيتُ ناصحا:
- سأمنحك فرصة أخرى لتغادر هذا المكان، إنني لا
أرى لك طاقة على الاختبار..

تسلل الشك إلى عقلي، وأوجستُ في نفسي خيفة
مما قد يحصل.. لكنني لم أسمح لذلك بأن ينال من

عزيمتي وتصميمي، وقمْتُ من مكاني مُطلعا إياه على ما
استقرت عليه نيتي:

- لقد قطعْتُ عشرين كيلومترا لكي أصل إليك
وأُجري الاختبار، وإني لست ممن يعودون بخفي
حنين..

عندئذ تأفف وزفر، ثم عمد إلى درج من أدراج
مطبخه الصغير؛ ليُخرج منه وثيقة ويجلبها لي قائلا:
- تفضل.. إقرأ..

أخذت الورقة، فإذا هي تصريح بإجراء تجربة علمية
نفسية مع الالتزام بتحمل مسؤولية ما يترتب عنها.. ثم
أردف قائلا:
- فكَر مليا قبل أن توقع يا..

وقبل أن يُتم كلامه أنهيتُ توقعي وأعدتُ له الوثيقة
مبتسما:
- تفضل..

فتعجب وهو يحرك رأسه يمينا ويسارا:
- يالك من مجنون..!

ثم قام ودلف إلى غرفة بجوار الحمام، ومكث فيها
لدقائق.. ليخرج منها وهو يجر عربة حديدية كنفالات
الإسعاف، ويتوقّف بها في منتصف البهو:
- فلتستلق عليها يا ليث..!

فدبّ الخوف والقلق في أوصالي من منظر العربة التي تُذكرني بالموتى والمعطوبين، ولزمت مقعدي مترددا للحظات، ثم قررت أن أغامر أخيرا وقد استحضرت أنه لن يصيبني إلا ما كتبه الله لي.. فاستلقيتُ على العربة بينما شرع الحداد في ربط قدمي ويديّ بها بنحو استقبَلت فيه راحتاي سقف البهو .. وبمجرد ما صرْتُ عاجزا عن الحركة؛ عاودني الخوف مجددا وقد تذكرتُ قوله عز وجل "وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ" .. في تلك اللحظة، دلف الحداد إلى غرفة من الغرف، ثم خرج منها وفي يده بخاخ كبير الحجم.. قبل أن يشرع في رش محتواه بغزارة على يديّ وقدمي وهو يقول:

- إنه مخدّر من الليدوكائين ومركبات أخرى، مفعوله قوي لكنه لا يتعدى الساعتين..

لم أنطق رغم الفزع الذي انتابني وقتها، وطفقتُ أنظر إلى العملاق وهو يدخل المطبخ ويخرج منه حاملا ملقاط فحم به جمرة تتوهج نارا، فانتفضتُ لا إراديا من مكاني وقد فقدتُ أطرافي الإحساس من الخدر وتكوّن العرق على جبهتي من الهلع، وقبل أن يتسنّ لي الصراخ من الفزع، كان الحداد قد وضع الجمرة في كفي الأيمن دون أن أشعر بالألم.. فحدّقتُ إليها وإلى الدخان الذي تصاعد من يدي واجما مذهولا، ثم نقلها بين رؤوس أصابعي مرات عديدة.. قبل أن يُنقلها بين أصابع قدمي وباطنيهما، وهو يبتسم:

- لا تسأل عن الألم.. سوف تشعر به لاحقا..

ثم أعاد الجمرة إلى المطبخ، وعاد إلي لِيُفَكَّ وثاقي
ويُخبرني:

- أمامك ساعتان قبل أن يزول تأثير المخدر،
بعدها ستشعر بالألم شديد.. وإن استعنتَ بوسيلة
نقل أو قصدتَ المستشفى أو طلبتَ من أحدهم
مُهدِّئا، فستُعَدُّ فاشلا في الاختبار.. عليك أن
تتحمل الألم وتجرب العذاب يا سيدي..

نزلتُ عن النقالة وسقطتُ فورا على الأرض من
الخدر الذي خلخل ارتكاز قدمي، ثم عاودت الوقوف
مستندا إلى الحائط مستعينا بمرفقي وركبتي؛ لأسقط
مجددا كمهرا حديث الولادة، وأنظر إلى الحداد نادما على
اللحظة التي قبلتُ فيها القدوم إليه.. في تلك اللحظة،
علِمْتُ مدى سذاجتي، وأدركتُ حقا فداحة ورطتي..

مهما حاولت أن أعبر عن الألم الذي أحسست به، لن أنجح.. ومهما حاولت أن أصف الحسرة التي شعرت بها، لن أفلح.. يكفي أنني أمضيت يوماً كاملاً وأنا أزحف في الفلاة على مرفئي وركبتي، عندما استحال علي الوقوف على قدمي أو إمساك شيء بيدي.. كنت عاجزاً عن بسط كفي عاجزاً عن ضمها، عاجزاً عن ثني أصابعي، عاجزاً عن مدّها.. وفي لحظة أطفعت فيها غبائي؛ حاولت الوقوف والإسراع في السير لعلني أبلغ مدخل المدينة قبل المغيب، فهويئت على وجهي قبل أن أستقيم واقفاً، وسالت الدماء من أنفي وازدادت آلام جراحي وقد اختلط لحمها بالحصى المتناثرة على الأرض.. فاستلقيت على ظهري وكل جزء مني يلسعني، ونظرت إلى السماء وكل شيء فيّ يلعنني.. اللعنة عليك يوم قصدت صلاح الدين!.. واللعنة عليك يوم تركت إفران!.. بل اللعنة عليك يوم قررت الكتابة!.. تضببت رؤيتي من وطأة الحمى، وجف حلقي من شدة العطش.. ونظرت إلى السماء طلباً للرحمة، وتمتمت شفاهي تدعو بالفرج.. مرت الساعات وتمزقت ثيابي في منتصف الطريق، وانضافت آلام الخدوش والرضوض إلى آلام الحريق.. ومن شدة الحاجة تبولت مرغماً في سروالي، حين عجزت أصابعي عن فك أزرار بنطالي.. عندئذ سقطت مستسلماً في مكاني، وأغلقت عيني وكل إنش مني يعاني.. حينها بدا كل ما قمت به في حياتي تافهاً أمام سلطان الألم، وأمام المعاناة تمنيت أن أدفع كل شيء

لأعود للعدم.. تمنيتُ ترك الحياة بملذاتها وأوجاعها
ومعانقة الفناء.. وأردتُ البكاء من شدة الألم، لكن شدة
الألم منعنتني من البكاء.. وفي لحظة من اللحظات،
سمعت أزيز سيارة تحلق بالقرب من مكاني؛ فمددت يدي
إلى السماء لعل سائقها يراني.. لكنه لم يفعل، ولم
يتوقف.. فهممت أن أناديه بكل ما يملكه صوتي من
الإمكانات، غير أن صرخة الألم كانت أسرع إلى نطقي
من كل الكلمات..

استفتتُ في غرفة حيث الفسيفساء نفسها التي
تُزيّن مقهى الرفاق، و حيث النقوش الأندلسية ذاتها التي
تُزخرف سقفه.. قبل أن أستوي جالساً في السرير، متنبهاً
لآلامي التي قلّت وسكنت، وإلى جراحي التي نُظّفت
وُضّدت، وأدخِلَ في سلسلة من التساوّلات التي انتهت
بدخول السكير "حسن" صاحب المقهى:
- عجل الله شفاءك يا ليث..

ابتسمتُ بصعوبة شاكرًا له دعاءه، مُشفقًا من أن
يعاودني الألم من جديد:
- أنا في بيتك إذن!.. كيف وصلتُ إلى هنا؟..

فعمد إلى الخزانة الصغيرة عن يمين السرير وأخرج
منها غُلبتي دواء وهو يقول:
- لقد صادفتك مرميًا عند مدخل المدينة..

- عند مدخل المدينة؟.. لا أذكر أنني وصلت
مدخلها أو أنني اقتربت منه حتى!..

- بلى، لقد وجدتكَ عنده في حالة يُرثى لها
والناس من حولك يتحلقون ويتعجبون.. من
حسن حظك أنني تعرفتُ عليك وقمتُ بإيصالك
إلى هنا..

- ولمَ لم تُخرج بي إلى المستشفى؟!..

فضحك وهو يناولني قرصاً من إحدى العلبتين:

- لقد خشيتُ على نفسي كما خشى الجميع؛ فبعد
الاعتقالات الواسعة التي طالت الناس بعد
التفجير، ما عاد أحد يعرض المساعدة في أمر
مريب خوفاً من التهم والشبهات.. يكفيني
شجاعة أنني غامرت وأحضرتك لبيتي وأنا أجهل
ما حل بك..

- وما هذا القرص؟..

- إنه مورفين.. عليك أخذ واحد كل ست ساعات
كيلا تتجدد آلامك..

قَطَّبْتُ حاجبيّ مسترجعاً الآلام الفظيعة، وأخذتُ
القرص شاكراً صنيع حسن:

- أنا مدين لك يا حسن.. لا أعرف كيف أشكرُك!..

فابتسم ضاحكاً:

- لا عليك يا صاح.. لقد استعنت بصديقة ممرضة،
من سوء حظك أنها غادرت قبل استيقاظك..

وأردف:

- أخبرني.. من هذا أو هؤلاء الذين تسببوا لك في حروق من الدرجة الثالثة؟!..

ثم حدّق إلي وهو ينتظر الإجابة في فضول، قبل أن أجيبه بعد سكوت طويل:

- إنها تصفية حسابات يا حسن، ولقد نلت ما أستحقّه.. شكرا لك على ما فعلته، ولا تشغل بالك بما حدث..

فرمقني بنظرة استغراب، وابتسم قائلا:

- كما تريد يا ليث..

وهمّ بمغادرة الغرفة.. ثم تراجع قائلا:

- نسيت إخبارك بضرورة بقائك في ضيافتي؛ لقد قالت الممرضة إنك لن تتعافى كلياً إلا بعد عشرة أيام على الأقل.. ستجهز وجبة العشاء بعد ساعة، ولا تنس أخذ المضاد الحيوي بعد كل وجبة..

- حسناً.. هل يعلم أحد من الرفاق بما حل بي؟..

- لا.. لماذا؟!..!

- لا أريد أن يعلموا بذلك.. ألك القدرة على الكتمان؟

- أجل.. لا تقلق..

- شكراً..

- عفواً..

خرج حسن من الغرفة وقد أخذتُ في التفكير.. ما
السبب الذي يجعل أغلب السكيرين أشخاصا حنونين؟!..
فعرفت الجواب؛ حين أدركتُ أنهم لو كانوا قساة لما
تأثروا بالظروف التي تدفعهم إلى السكر.. ثم بلغتُ
قرص المورفين وقد شرعتُ في البحث عن العذر الذي
سيقنع أُمي بغيابي المفاجئ هذا..

بعد مرور أسبوعين من الالتزام بالتعليمات الطبية واستعمال الأدوية والمسكنات؛ تخلصتُ كلياً من الآلام والضمادات، وتمكنت من الاستغناء عن المورفين والمهدئات.. غير أن ما تركته التجربة في نفسي كان أشبه بِندوب تأبى الزوال، إذ صار التصرف كأن شيئاً لم يقع ضرباً من ضروب الخيال، وباتت استعادة قهقهاتي المألوفة طلباً من المحال.. وصرت أبتعد عن كل فرن وموقد بأمّتار، متجنباً كل ما له صلة بالنار.. حتى أنني ما عدتُ أطيّق النظر إلى الساخن من الألوان، لا سيما بعد أن علمتُ ما للنار من رهبة وسلطان.. لقد صدق من قال منذ غابر الأزمان، أنه قد يخشى الجبل من لدغته الثعبان.. أذكر أنني غادرت دار "حسن" شاكراً بأبلغ عبارات الامتنان، وتوجهت مباشرة إلى درب الإسبان.. كنت أنوي مفاجأة صلاح الدين في مسجده، بيد أن حُبّه لتناول الفاكهة قبل الغداء، جعلني أصادفه عند متاجر الفواكه المعلقة.. فتوقفتُ أنظر إليه وقسمُ مني يود ضربه والانقضاض عليه، فيما تولى أناي الأعلى إقناعي بتوقيره والسلام عليه.. لأقترب منه بهدوء، وأسلم عليه بملامح غاب عنها الابتسام:

- السلام عليكم يا صلاح الدين..

ليستديرَ من فوره ويردّ علي السلام بابتسامة حملت من البراءة والوداعة ما مسح الضغينة من قلبي:

- وعليك السلام.. أهلاً!!!

ثم ارتمى على كتفي يقبلها ويعانقني:

- أسألك الصفح يا أخي.. أسألك الصفح..

فاستغريثُ ضاحكا:

- عماذا؟!..!

ثم ابتعد عني قليلا حتى يتسنى له النظر إلى عيني:

- عن قساوة الاختبار يا ليث..

- لكنني من وافق عليه!.. فلأي سبب ترى نفسك

مذنبا يطلب الصفح؟..

فرد وقد انكسرت حواجه من الإشفاق والعطف:

- ومن يدري يا أخي؟.. لعل الاختبار فاق طاقتك؛

فوجدت في نفسك شيئا تلومني عليه..

وأردفَ بعد سكوت قصير:

- تالله لأمكّنك من نفسي فتحرقني كما أحرقك

الحداد إن شئت، حتى تشفي غليلك ويصفو

خاطرك..

عندئذ تغير موقفي منه وربّت على كتفه:

- معاذ الله يا شيخنا، إن كنت سأفعل شيئا فهو

الشكر والثناء عليك.. لقد تعلمتُ من ذلك الألم

أشياء لا تُعلّمها الراحة والسكينة..

لترتسم علامات الانتباه على محياه ويسألني

باهتمام:

- وما الذي تعلمته؟!

- لقد تعلمت أن الله لا يمزح يا صلاح الدين، وتعلمت أن الحياة التي يعقبها حساب عسير لا تستحق أن نخاطر من أجلها.. إن كانت الجمرة الصغيرة قد أعجزتني من الألم، فكيف سأكون يا ترى بين نيران الجحيم التي لا تُقارن بنيران الارض؟.. أقسم أنني لو كنت ملحدا قبل هذه التجربة، لافترضت وجود الإله بعدها ولأمنتُ به خوفا من أن أذوق عذاب الحريق كزّة أخرى!..
- النار تُطوِّع الحديد والمطارقُ تصنعُ منه سيفا حادا يا ليث.. فإن صبرت على مطارق الابتلاء صرتَ سيفا مهندا، أما إن جزعت ولم تصبر؛ فمصيرك البقاء مع الخردة.. ولك أن تختار مِنْهُمَا أَيُّهُمَا تريد أن تكون..

ثم استأنف حديثه وهو يعبئ طلبه من الفواكه على شاشة المتجر الافتراضية:

- لقد راقبك الحداد طيلة الساعات التي تلت خروجك من بيته، وتدخل حين سقطت مغشيا عليك من الألم والإجهاد، ثم نقلك بسيارته إلى مدخل المدينة واستمرّ في مراقبتك إلى أن تقدّم أحد العابرين وأخذك من هناك.. من يكون يا ترى؟!..
- إنه "حسن" رب مقهاي المفضل..
- سبحان الله..

فسكت وهو يبتسم شاردا.. ثم تابع:

- صراحة لو لم يتدخل الحداد، لكان خيرا لتجربتك وأنفع لك..
- لماذا؟ !
- أفضل مساعدة قد تتلقاها هي ألا تتلقى مساعدة.. إن الذين يساعدوننا يختصرون علينا الطريق؛ فيحرموننا من اكتساب العيد من التجارب واستنباط الكثير من العبر..
- هممم.. ومن يكون الحداد؟!..
- طبيب جراح وباحث في علم النفس العصبي.. ولولا معرفتي ببراءته في ما يقوم به وحرصه على سلامتك ما عرضتُ عليك الذهاب إليه..
- ولماذا طلب مني الإمضاء إن كان بارعا في ما يفعل؟!.. أوليس في فعله شك وخوف؟!..
- كلا يا ليث، إنه لم يخف من فشل التجربة ولم يَشْكُ في نجاحها.. ولكن حمايةً لنفسه إذا ما حاولت اتهامه بالتعذيب والاعتداء..
- اهه.. هكذا إذن!..

قبل أن ينزل صندوق التفاح الزجاجي إلى يد صلاح الدين، ويتسلم منه هذا الأخير كيس الطليبة باسمه يقول:

- إنني لا أستهين بما مررتَ به يا ليث، لكنه مجرد اختبار بسيط أمام ما ينتظرك.. إنه بمثابة شرارة الجدية التي تحتاجها للبدء في جهاد النفس..

لأَسأله متعجبا:

- اختبار بسيط؟!!.. وهل هناك ما هو أكثر إبلا ما من النار يا شيخ؟..
- لا أعتقد ذلك.. لكن تأثيرها سيزول بعد زوال الألم الذي تُسببه بمدة قليلة، وسرعان ما ستعود إلى عاداتك الساخرة ونظرتك التافهة للحياة..
- وما العمل يا صلاح الدين؟..
- سوف نستغل فترة التحول هذه لكي نُجرد نفسك من المادة إلى الروح شيئا فشيئا..
- وكيف ذلك؟..
- ستُجبر نفسك على ما تكرهه حتى يَقِلَّ نفوذها وسلطانها عليك؛ فتصير قادرا على التحكم بأهوائها ورغباتها.. من الآن فصاعدا سوف تنام باكرا لتستيقظ باكرا، وستُقلُّ من كلامك وأكلك، وستحافظ على صلواتك مع الجماعة، وستخصص وردا يوميا من القرآن أقله حزبان.. اتفقنا؟!...

سكُتْ لهنيهة، ثم نطقُ:

- حسنا.. اتفقنا..

ثم صافحني ضاحكا:

- إذن التزم بالخطوة وقابلني حالما تلمسُ سريرتك شيئا من الصفاء..

لأَسأله قائلا:

- وكيف سأعرف صفاء سريرتي؟!..
- سوف يتحسن ظنك بالله وعباده، وستستعيد نفسك براءة الأطفال وسذاجتهم..

فانفجرت ضاحكا وأنا أقول:

- أسأقطع هذه الأشواط كلها لكي أصير ساذجا كالأطفال؟!..

قبل أن يُخرج من الكيس تفاحتين ويقدمهما لي
قائلا:

- إننا نكبر ونتخلص من سذاجة الأطفال بحثا عن الحكمة، لندرك في آخر المطاف أن الحكمة في سذاجة الأطفال.. تلك السذاجة التي تمنحك من النقاء ما يجعلك ترى كل شيء جميلا..

بصبة المبانين

إنه اليوم الذي ظننتُ فيه اكتفائي من عالم التشرد، وعزمتُ فيه على اقتحام عالم الجنون.. كنتُ لم أهتدِ بعد -ساعتها- إلى طريقة تمكّني من ولوج مستشفى المجانين، وكنتُ مُدركا تمام الإدراك صعوبة فعل ذلك.. فاختراق مؤسسة حكومية أصعب بألف مرة من التعرّف على شردمة من المتشردين.. أعترف أن تجربتي كمتشرد لم تكن بالمثالية التي تطلّعتُ إليها؛ فلقد غابت عن علمي عدة تفاصيل لطالما أثارت فضولي، أهمّها، هوية الجهات التي تزود الولاية بالخمّر والمخدرات وتوفّر لزبائنها صالات القمار السرية وأوكار الدعارة الخفية.. لكن، وعلى الرغم من ذلك، لم أجد في نفسي رغبة في الإلمام بها، فلقد دخلتُ ذلك العالم كروائي يعيش التجربة، لا كمحقق يجمع الأدلة.. أعترف أيضا أن فراق الرفاق كان أصعب مما تخيلته، فثلاثة شهور من صحبتهم تركت أثرا بليغا في نفسي. ولقد شعرتُ بذلك حين أوهمتهم بضرورة عودتي إلى "إفران" وبأنني قد لا أقابلهم مجددا.. مازلت أذكر ملامحهم التي تغيّرت لقولي، وعيونهم التي أظهرت مزيجا غريبا من الحزن والغضب، وعناقهم الحار الذي لا يعكس طبيعة الشارع القاسية.. أذكر أيضا أنني سألتُ الإيرلندي -وأنا أودعهم في المقهى- السؤال الذي تردد كثيرا في ذهني بخصوصه:

- قل لي يا "وولف" .. لماذا تفضل العيش متشرداً
وأنت قادر على اقتناء أجمل المنازل؟!..
ومازلتُ أذكر نظراته العميقة، وابتسامته الفاترة وهو
يقول:
- الدنيا ممر، والعقلاء لا يبنون في الممرات..

كان مستشفى الولاية للأمراض العقلية والنفسية الهدف الذي صبيث عليه جام تركيزي يومها.. وكنت أمزق الورقة بعد الأخرى وأنا أضع الخطط التي ستمكنني من ولوجه.. فكرت في التظاهر بالجنون في أول الأمر، بيد أن ضرورة إجرائي لفحوصات دقيقة قبل دخولي إلى المستشفى؛ قد تفضح زيف ادعائي، ما دفعني إلى التفكير في انتحال شخصية صحافي وتوثيق ما يجري في عالم المجانين على شكل حوارات وتقارير، غير أن الغلاف الزمني الضيق لمهمة كتلك؛ جعلني أستبعد ذلك.. ففكرت في التنكر كعامل نظافة، ثم كمساعد للطباخين، ثم كبستاني في حدائق المستشفى، ثم تضاربت الأفكار في رأسي، وعجزت عن الاستقرار على الطريقة المثلى.. فما كان مني إلا أن رميت بكومة الأوراق في سلة المهملات، وغادرت المنزل باتجاه عيادة صديقي "أيوب الفاطمي.."

كان أيوب السمين صديقاً لي منذ أيام الجيش، حيث كان يزاول مهامه كطبيب عسكري متدرب، إلا أنه لم يكن جيداً في التصويب لرعشة كانت تراوده كلما حمل السلاح.. الشيء الذي بالغ الجنود في السخرية منه كلما ذكر اسم أيوب، حتى أن قائد فيلقنا -الذي لا يمزح إلا نادراً- قرر ذات يوم أن يكون فرقة خاصة بالقصف العشوائي وعيّن أيوب قائداً لها باعتباره أكثر عسكري يخطئ الأهداف.. لكنه لم يكن يخطئ أهدافه الخاصة، وكان مُحَطَّطاً بارعاً يحصل على أي شيء يضعه نصب

عينيه.. والسبب في ذلك ذكاؤه العاطفي الشديد الذي يجعله محبوبا لدى الجميع، ويُيسّر له تكوين علاقات اجتماعية عديدة بمنتهى السهولة.. فكان من البديهي أن يكون أول شخص أقرّر الذهاب إليه، وكان من البديهي أن يُقبِلَ عليّ ضاحكا ويعانقني بحرارة حين دخلتُ عليه في مكتبه:

- أهلا أهلا أهلا يا صديقي!.. إنه ليوم مبارك هذا الذي تكرمت فيه بزيارتي!..

عانقته وضربتُ على ظهره ثلاثا، وأمسكتُ بمرفقه قائلا:

- مشاغل الدنيا يا صاح، أنت أكثر شخص يدرك ذلك..

- لقد مرت سنة على آخر مرة التقينا فيها.. فلتفضل بالجلوس..

جلستُ إلى مكتبه وقد أخذتُ حبة من الشوكولا التي وُضعت في طبق عليه.. ثم أخذتُ في فتحها وأنا أسأله:

- كيف حال زوجتك وولديك؟

فأجاب باسمًا وهو يتكئ على كرسيه الفاخر:

- لعلك تقصد أولادي..

عقبتُ على قوله باندھاش:

- تبارك الرحمن!.. ازدان فراشك بمولود جديد إذن..

- ثم قمْتُ إليه وعانقته مباركا:
- فليباركه الله ويجعله قرّة عين لك..
- وعدْتُ إلى الجلوس وهو يقول:
- آمين.. اسمه سليم..
- قبل أن يضحك مبتهجا.. ويضيف:
- عليك أن تتعرف عليه.. إنه مشاكس ذو حدود
- سمينة كقط اسكتلندي..
- هههههههه.. رفقا بخديه ألا تأكلهما..
- فقهقه بملئ فيه ورد قائلا:
- لا أنكر أن الفكرة تراودني أحيانا يا ليث..
- ولمّا شرعْتُ في أكل الشوكولاتة، سألتني والابتسامة
- لا تزال على وجهه الممتلئ:
- وأنت؟.. ألم تُعزز فريقك بلاعب جديد؟..
- ففرّرت مني ضحكة تناثر معها جزء من الشوكولاتة..
- وصدمته بالحقيقة:
- لقد حللتُ الفريق يا أيوب.. ما عدتُ متزوجا يا صديقي..
- وجم أيوب عاجزا عن الكلام والدهشة تملأ كل إنش
- من محياه.. وأردفتُ مخففا عنه دهشته:
- لا تستغرب يا صديقي، فلستُ الأول ولا الأخير..
- ثم اقترب بكرسيه، ومدّ عنقه واضعا كلتا يديه على
- المكتب.. واستفسر متعجبا:

- لكن، ما الذي حدث؟!.. لقد كنتما في منتهى الحب والوئام!..
- نعم لقد كنا وكانوا، وأصبحنا وأصبحوا.. لقد انتفت الأسباب وتغيرت الأحوال..
- وأين ذهب ذلك الحب كله؟!..
- اسمع يا صديقي.. أحيانا تضع معايير لذلك الشخص الذي تتمناه وتقول إنك من المستحيل أن تقبل سواه، لكن يحدث أن تحب شخصا لا يحمل أيا من تلك المعايير وتعتقد أنه من المستحيل أن تنساه.. إلا أن الوقت كفيل بأن يغير نظرتك للموضوع، ويجعلك تتساءل متعجبا: "رباه.. كيف أحببت هذا المعتوه؟!".
- إنها مسألة وقت يا صديقي.. مسألة وقت لا غير..
- سبحان مبدل الأحوال!..
- سكث قليلا لِيَخِفَّ وقع المفاجأة عليه.. ثم فاتحته في الموضوع الذي جاء بي إليه:
- لقد قصدتُك لأجل ما هو أغرب مما سمعته مني؛ فلا تتفاجأ مجددا..
- ابتسمت ضاحكا من آمارات الترقب التي بدت عليه.. وأردفت مُطْمَئِئِنا:
- لا تقلق!.. إنه ليس بالأمر الخطير..
- خيرا إن شاء الله، هات ما عندك يا ليث!..

- أيوب.. اسمع.. أريد المكوث لأيام في مستشفى
الولاية للأمراض العقلية والنفسية.. هلا
ساعدتني بما تملكه من علاقات ومعارف؟..
- انفجر أيوب ضاحكا وهو يضرب سطح المكتب
بقبضتي يديه مرددا:
- لقد تأكدتُ الآن من جنونك!.. لقد تأكدتُ الآن
من جنونك!..
- وتوقف عن الضرب إلى أن اجتاز نوبة الضحك..
وقال:
- يكفي أن تطلبَ منهم الدخول ليعلموا أنك
مجنون، فلا أظن أن هناك عاقلا يحب أن يدخل
ذلك المكان!..
- بلى هناك عاقل يريد ذلك، وهو أنا..
- آهاه.. وأيّ عمل لك مع المجانين؟!..
- أنا بصدد كتابة رواية عنهم، ويلزماني أن أكون
كمريض بينهم.. فهلا ساعدتني يا صديق؟!..
- فتوقف عن لهجته الساخرة، وقال:
- جميل.. أرى أنك ما تزال مصمما على تحقيق
حلمك يا ليث!..
- ثم نهض عن كرسيه وهو يُرَزِّرُ وزرته البيضاء،
واقترب مني جالسا على حافة المكتب يقول:
- من المستحيل أن يتم قبولك في مستشفى
الولاية؛ فاختباراتهِ التشخيصية الدقيقة كفيلة

بكشف بطلان ادعائك.. لكنني أدينُ لطبيب
يُشرف على مصحة نفسية خاصة، ولا أعتقد أنه
سيرفض مكوثك بها لبضعة أيام إن طلبتُ منه
ذلك..

فتهللت أساريري فرحا بالبشارة وسألته مستعجلا:

- رائع!.. وما اسم المصحة؟.. أين توجد؟!..

وتبسم أيوب ضاحكا:

- على مهلك يا صاح!.. إنها لن تهرب من مكانها..

قبل أن أضحك ويجيب:

- إنها عيادة نعمان التازي.. تقع في آخر شارع

الموحدين..

ابتسمتُ من صيت نعمان الذي يلاحقني من مكان

لمكان.. ثم سألتُ أيوب قائلا:

- وهل سيسمح نعمان الصارم الحازم بأمر مماثل

في عيادته؟!..

لِيَزِدَّ مُطْمَئِنًّا وهو يربت على كتفي:

- لا تكثرث لأمره؛ فمنذ توليه السلطة لم تطأ

قدماه العيادة.. عدا عن ذلك أخبرني الطبيب

المشرف أن نعمان ما عاد يسأله عن أحوال

العيادة وأنه على وشك اقتنائها منه..

كانت أشعة الشمس تتسلل عبر النوافذ العملاقة
وتزيد جدران العيادة بياضا فوق بياضها الشديد، فيما
جلستُ في ردهتها منتظرا فراغ الطبيب.. خفضتُ
بصري إلى الساعة الحائطية، متذمرا من الساعتين التي
أمضيتهما في انتظاره.. وبعد مرور نصف ساعة أخرى؛
نَفِذ صبري تماما، وقمتُ إلى باب مكتبه المُوصَد وطرقْتُ
عليه بنحو يعكس جزعي.. قبل أن يَفْتَح الباب بالقدر
الذي أَظْهَرَ أنْفَه البَصَلِيَّ وجزءا من شعره الأشيب
المنكوش وهو يقول:

- من أنت؟!.. ماذا تريد؟!..

تراجعتُ بخطوة وأنا أحرق إليه مستغربا:

- ألم تطلب مني الانتظار قبل ساعتين؟!..

فحدجني بنظرات غريبة.. ثم فتح الباب على
مصراعيه، وفَرَك ذقنه قائلا:

- حسنا.. تفضل!..

دخلتُ والشكوك تُساورني حول تصرفاته، وجلستُ
إلى المكتب بينما جلس قبالي وانشغل بقراءة كتاب..
فحدقتُ إليه مبتسما لا أستسيغ ما يفعله، وتلاشت
ابتسامتي شيئا فشيئا جراء تجاهله الذي تجاوز كل
الأصول والأعراف.. قبل أن أنقُر سطح المكتب بأصابعي

مسترعيا انتباهه، ويرفعَ بصره وهو يسألني بما لم يكن مُتوقَّعا:

- مالكَ ترتدي السواد في عالم يُشعُّ بياضا؟!.. أم أنك لا تحترم خصوصيات المكان؟!..

فحاولتُ فهم السياق واجما، ثم أجبتَه مبتسما بعد أن اهتديتُ لرابط منطقي:

- اعذرني سيدي، لم أكن على علم بسياسة المشفى.. أتفرضون ارتداء البياض على الزوار أيضا؟!..

عندئذ انفجر ضاحكا وأفلت الكتاب من يده، ثم جثا أمامي واضعا يديه على ركبتي وهو يحدق إلي عيني:
- ولمَ تعتذر؟!.. لِمَ لم تدافع عن ذوقك؟!.. ألا تعلم بأن الأذواق لا تُناقش؟!..

فأجبتَه وأنا أرمقه بنظرات لا تخلو من الارتياح:
- كلا.. أعلم أن الأذواق لا تُناقش، لكنني افترضتُ من سؤالك أن للمشفى سياسات معينة..

لينتفضَ من مكانه مقهقهها.. ويصيح معارضا ما قاله سلفا وهو يُرعشُ حاجبيه:

- يقولون أن الأذواق لا تُناقش؟!.. كلا يا صاح، إنها تناقش وإن حدث ودافعتَ عن ذوق وضع؛ فستُفحم، وستُهزم، وبالقاضية أيضا..

سكتُ متعجبا من انفعاله الذي لا يستدعيه الموقف، وعاد إلى مقعده جالسا يضحك.. إلى أن فُتح المكتب

ودخل شاب أصلع أنيق يرتدي زيا مماثلا للذي يرتديه الطبيب.. ثم أقبل إليّ مصافحا يبتسم، ونظرَ إلى الطبيب شزرا وهو يقول مُوَبِّخًا:

- أستغفلت الممرضين؟! ألم أنهك عن الدخول إلى مكتبي؟!.. أتريد أن أعاقبك مجددا يا سعد؟!..

عجزتُ عن فهم ما يجري.. وشاهدتُ الطبيب وهو يتقوقع حول نفسه وقد شرع في التباكي محركا رأسه ذات اليمين وذات اليسار:

- لا يا سيدي!.. لا.. لا أريد العقاب!.. لا أريد العقاب!..

ثم صاح الشاب في وجهه منفعلا:
- أخرج من هنا إلى جناحك الآن!..

فقام الطبيب عن كرسيه وفَرَ خارجَ الغرفة مُوَلِّوًا، وجلس الشاب في مكانه وشرح ما يجري قائلا:
- إنه أحد نزلائنا، دائما ما يقتحم مكتبي في غيابي ليلعب دور الطبيب.. أعذر لك سيدي..

أطرقْتُ رأسي ضاحكا مما حصل، وتابع الطبيب الحقيقي كلامه:

- لقد اتصل بي صديقك أيوب وأخبرني بكل شيء.. صراحة.. ولكي أكون صادقا معك.. لقد قبلتُ طلبه بصعوبة.. فكما تعلم، ما يزال الدكتور نعمان التازي صاحب القرار داخل مصحته، أما أنا فلست على صلاحيات تسمح لي بتقرير

مكوثك هنا من عدمه.. إلا أنني فعلت ذلك ردا
لجميل أيوب، شريطة ألا يتعدى مكوثك هنا ستة
أيام.. فماذا تقول؟!..

لم تكن المدة المعروضة كافية في نظري، لكنها كانت
أفضل من لا شيء.. ما جعلني أُجيبه متحمسا:

- لا أملك إلا أن أشكرك على قبول طلبي.. أشكرك
جزيلا سيد..

- مهدي.. اسمي "مهدي المرابطي"..

- سُرت بلقائك دكتور "مهدي"..

ثم ابتسم وقال بشيء من التحفُّظ:

- هناك شرط آخر يا ليث..

- ما هو؟..

- في حالة حدوث مشكلة أو شجار بينك وبين

أحد النزلاء؛ فستغادرُ على الفور..

أجبتَه بابتسامة فاترة:

- لا تقلق.. لقد جئت إلى هنا قصد المعاينة

وتدوين الملاحظات، وليس لافتعال المشاكل

والشجارات..

ليُصافحني مرة أخرى، ويقومَ عن كرسيه قائلا:

- يسرُّني تفهُّمك سيدي.. والآن فلتتفضل معي

حتى نقوم بجولة في أرجاء المشفى..

فرافقته خارج المكتب، وانعطفنا على يساره وأنا
أخطو بحذر على أرضيته اللماعة الزلقة.. قبل أن يلتفت
الطبيب وقد انتبه لتخلفي عنه، ويتسمّ قائلاً:
- لعلك تستغرب الأرضية المُرَحَلقة..

أجبتّه ضاحكا وأنا أعيد قدمي اليسرى التى انزلت
عن مسار خطاي:
- أجل.. إنها مُرَحَلقة جدا..

لِيُتَابِعَ سَيْرَهُ وهو يقول:
- منذ ثلاث سنوات، أَعَدْنَا بناء هذه الأرضية حتى
تصبح على هذا الشكل الذي تراه..
- هممم عجيب.. وما الداعي إلى ذلك؟!..

فتوقف أمام أول باب على يمين الممر وطرق ثلاثا،
قبل أن يفتحه ويقول:
- تعال والى نظرة!..

فتقدمتُ وأُظَلَلْتُ؛ لأُفَاجَأُ بحجمها الذي كان أفسح
مما ظننتُ، وبِطِلَائِهَا الذي كان عبارة عن لوحات فنية
لأناس من مختلف الأعراق والأعمار، قبل أنتبّه لسرير
دائري في أقصى اليمين ويُرِدِّفُ الطبيب قائلاً:

- هذه حجرة الشخص نفسه الذي أَعَدْنَا بناء
الأرضية من أجله.. إنه رسام مولوع برياضة
الهوكي، ولا يَسْتَحْسِنُ المشي إلا على الأرضيات
الزلقة..

أغلق الباب وتابعنا السير إلى آخر غرفة على اليسار،
ثم فتحها ووقفْتُ عند بابها لأرى بها رجلا قصيرا هريما
يخطو رفقة سلحفاة ضخمة في غاية البطء.. قبل أن
يلمحنا ضاحكا، ويعود إلى الانشغال بسلحفاته، ويتكلم
الطبيبُ قائلا:

- اسمه "الفضل" وهو أقدم نزيل في المشفى، أما
تلك السلحفاة فرفيقة دربه وأغلى ما يملكه في
حياته.. لعلك تتساءل عن الفرق الواضح بين
الحجرتين من حيث المساحة والتزيين؟
- أجل هذا ما أفكر فيه.. لماذا تختلفان؟!
- لسبب بسيط.. وهو نظام المشفى الذي يُكيّف
الحجرات حسب حالة المرضى وحاجاتهم
وميوالاتهم..
- همممم.. جميل!..
- ثم استدركَ قائلا:

- باستثناء الزي.. نُبقّيه موحدًا بين المرضى
والعاملين بالمشفى، وذلك حتى لا ينعكس
التمييز سلبا على نفسية المرضى..
- وكم عدد المرضى والعاملين بالمشفى؟..
- عشرة مرضى، وممرضان..

أغلقَ الطبيب الباب، وانتهى بنا الممر إلى باحة
فسحة يتوسطها حوض أسماك زجاجي مستطيل،
تحيط بها ست حجرات من ثلاثة اتجاهات.. ثم اتجه

إلى واحدة منها وفتحها؛ لأجد نفسي أمام إحدى أجمل المكتبات تصميمًا وإغراء بالقراءة، ويقول الطبيب مُعَرِّفًا:

- أما هذه فغرفة المطالعة، إنها تحوي ما يفوق خمسة آلاف كتاب في شتى الميادين..

ولمّا لاحظتُ أرجوحة معلقة بين خزانيتين، استغربتُ ذلك واستفسرته عن وجودها قائلاً:

- وما الغرض من هذه؟!..

أجاب باسمًا:

- تلك أرجوحة سعد، إنه لا يستلذ القراءة إلا مستلقيا عليها..

ثم صعدنا الدرج إلى السطح الذي كان عبارة عن حديقة تتخللها شجيرات الخزامى وأُصص طُولِيَّة لأزهار الأقحوان والياسمين.. وشاهدتُ المرضى لأول مرة وهم يتسكعون ويمرحون بين جنباتها، فيما وقف المُمرّضان على مرتفع إسمنتيّ وهما يراقبونهم بمنتهى الجدية والحزم؛ الشيء الذي دفعني لأقول:

- لهذين الممرّضين نظرات ثاقبة كالصقور!..

فضحك الطبيب من قولي، وردّ قائلاً:

- إنهما مريضان وليسا مُمرّضين..

ثم أشار إلى رَجَليْن يقفزان كالكنغر:

- أرايتَ ذاك الطويل الذي ينطُّ برفقة القصير؟..

- نعم..

- إنه أحد الممرّضين..

قبل أن يُشيرَ إلى رجل آخر يزحف كالودودة:

- وذاك هو الممرض الآخر..

عندئذ ضحكْتُ رغما عني:

- ههههه.. المظاهر خداعة هنا..

فعقب يُفسّر الوضع مبتسما:

- المريضان اللذان ظننتَ أنهما ممرضان، هما

عسكريان سابقان تعرّضَ فَيَلَقُهُمَا للإبادة عندما

غفلا عن حراسته؛ فدخلَا في أزمة نفسية حادة،

وهُما بهذا السلوك الذي يقومَان به يعبران عن

الندم الذي يَتمَلِّكُهُمَا.. أما الممرضان فَهُمَا مكلفان

بالترفيه عن المرضى ومحاكاة تصرفاتهم حسب

ما تقتضيه حالاتهم..

- همممم.. هكذا إذن..

عندئذ ربّت الطبيب على كتفي سائلا:

- ومتى سنتشرف باستضافتك سيدي؟..

أجبتُه على الفور:

- أنا ضيفكم منذ اللحظة..

فابتسم ضاحكا وقال:

- حسنا.. فلترافقني إذن لِتُحصلَ على زِيَّك..

اقتحمتُ عالم المجانين أخيراً، وجلستُ بينهم في الحديقة كعميل سري من عالم العقلاء.. ثم بدأتُ في مراقبة النزلاء على طول الأرضية المعشوشبة وعَرَضَها باحثاً فيهم عما يُشفي فضولي ويملاً روايتي.. كان أحدهم لا يَمَلُّ من الزحف على بطنه إلى جانب زميله الذي يحوم حوله متنططا، وكان الممرضان البشوشان لا يَمَلَّان من مجاراتهما وتنفيذ ما يطلبان.. وعلى مقربة منهما وقف رجل طويل نحيف كالألف، يشرد بناظره نحو السماء مُتمتما كمن يستنزل الغيث، وآخرُ بدين انزوى بنفسه يُحدِّثُها مبتسماً.. إلى أن انتبه إلى تحديقي به، وسقط على بطنه منبطحا يتدحرج كبرميل حتى وصل إلي، ثم رفع رأسه دون جسده وصاح فجأة كالديك:

- كوكوعععوووو..

فأطبقتُ شفاهي وأنا أضغط على طرف المقعد مُجاهداً لثانيتين أو ثلاث، قبل أن انفجر في وجهه ضاحكاً، ويتدحرج عائداً من حيث أتى.. الشيء الذي أثار انتباه سعد المجنون وجعله يُقبل نحوي قائلاً:

- السلام عليكم..

رددتُ عليه قائلاً:

- وعليكم السلام ورحمة الله..

ثم أبدى لباقة لا يُبديها معظم العقلاء:

- أسمح لي بالجلوس إلى جواركم سيدي
والحصول على شرف التقرب منكم؟..
- شكرتُ الله الذي وفر علي عناء المبادرة وأفسحتُ له
متشوقا لمعرفة ما قد يصدر عنه:
- فلتفضل بالجلوس.. على الرحب والسعة..
- فجلس وقد وضع ساقا على ساق يسأل:
- إنه يومك الأول.. أليس كذلك؟..
- أجل..
- ممّ تعاني؟..
- سكتُ لهنيهة لا أدري ما أقول.. ولَمَّا أزعجني
تحديقَه المستمر؛ أجبتَه:
- اضطرابات اكتئابية..
- ليطرح سؤالاً آخر وهو يحك خده:
- وما سببها؟..
- سكتُ مجدداً وقد حوصرتُ بأسئلته التي لم أتوقع
تلقّيها من مجنون.. قبل أن أرتجل مجيباً:
- لقد احترق متجري وخسرتُ تجارتني وانفصلت
عني زوجتي.. فصار من المستحيل أن أتماسك
وأن أظل على طبيعتي!..
- أمسكتُ عن الكلام متظاهرا بالحزن.. ثم أطرقتُ
رأسي كطائر جريح وتابعت الكلام:

- نعيش أياما في منتهى السعادة والقوة، ثم
تحدث مشاكل تذكرنا بأصلنا الضعيف!.. وأنت
ممّ تعاني؟..

فرمقني بازدراءٍ لم يتقبَّل سؤالي، ثم أشاح عني
وقال:

- لست أعاني من شيء.. إنهم يكذبون ويقولون
أني مريض بالفصام..
- من يقول ذلك؟..

- أبنائي.. هم الذين أصرّوا على إدخالني هذه
المصلحة، الأوغاد الذين أنفقت حياتي للاعتناء
بهم، لم يطبقوا الاعتناء بي لما تبقى من حياتي؛
فقررروا التخلص مني بهذه الطريقة..

أصغيْتُ إلى كلامه دون تصديق أو تكذيب، ذلك أن
ما شاهدته من أمره في المكتب أبان عن اضطراب
لا يمكن إنكاره؛ فالتزمتُ الصمت ورحتُ أهدقُ إلى بقية
النزلاء.. إلى أن لفت انتباهي دخول شابة حامل إلى
الحديقة، وأخذتُ أدقّق في ملامحها التي سبق وأن
رأيتها من قبل.. قبل أن تتوجه إلى أكبر النزلاء سنا
وتُعائقه، وأتذكّر أنها إحدى المرأتين اللتان تترددان على
شاهين.. الشيء الذي أثار استغرابي وفضولي، وجعلني
أراقبها عن كثب.. إلى أن جُن جنون سعد مرة أخرى؛
وضربني على قفائي يقول:

- إلام تحدد؟!..

أجبتة وأنا أفرك قفاي من الألم:

- لا شيء.. لا شيء.. لقد آلمتني يا صاح!..

عندئذ وقف حائلا بيني وبين ما كنت أنظر إليه..
ودخل في نوبة من الضحك الهستيري متظاهرا بتدخين
سيجارة لا تدركها الأبصار، وقال:

- قبل أن يصل بك المطاف إلى الحيوان المنوي
الذي خَصَّ بويضة أمك المصون، كنتَ جزءا
مما تناوله أبوك المحترم.. وبما أنك مغربي؛
أرجِّحُ أن لك أصولا من الخبز والشاي والدجاج
والبقرة، هذا إن لم ينزعك عِرْقُ من حشيش أو
جينات من نيكوتين..

ثم رفع رأسه إلى السماء وقهقه بملء فيه وكأنه ملك
في عالمه المجنون..

لَمَّا أَذْنَتِ الشَّمْسُ بِالمَغِيبِ شَرَعَ النِّزْلَاءُ فِي مَغَادِرَةِ
الحَدِيقَةِ تَبَاعًا تَحْتَ إِشْرَافِ المَمْرُضِينَ النُّشِيطِينَ..
وَعَلَى الرِّغْمِ مِنْ عَنَادٍ "سَعْدٌ" وَإِصْرَارِهِ عَلَى البَقَاءِ، تَمَكَّنَّا
مِنْ إِقْنَاعِهِ بِالمَغَادِرَةِ دُونَ اللُّجُوءِ إِلَى القُوَّةِ أَوْ العُنفِ،
مُعْتَمِدِينَ فِي ذَلِكَ عَلَى اللِّينِ وَاللِّطْفِ وَابْتِسَامَاتِهِمَا الَّتِي
لَا تَنْتَهِي.. الشَّيْءُ الَّذِي أَثَارَ إعْجَابِي، وَنَوَّهْتُ بِهِ لِأَحَدِهِمَا
قَائِلًا:

- تُرْفَعُ لَكُمَا القُبْعَاتُ عَلَى صَنِيعِكُمَا هَذَا!.. لَوْ كُنْتُ
مَكَانَكُمَا لَمَا تَحَمَّلْتُ عَنَادَهُ..

فَضَحَك لِقَوْلِي، وَرَدَّ قَائِلًا:

- إِنَّهُ عَمَلُنَا يَا سَيِّدِي.. لَقَدْ تَلَقَيْنَا تَكْوِينًا وَتَدْرِييًا
مَكْتَفًا لِهَذِهِ المَهْمَةِ..

- أَعْلَمُ.. وَبِالرِّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، يَحْتَاجُ عَمَلُكُمَا صَبْرًا
وَسِعَةً صَدْرًا لَا تَمْنَحُهَا دُرُوسُ التَّكْوِينِ..

- أَجَلٌ صَدَقَتْ يَا سَيِّدِي..

سَكَتَ قَلِيلًا وَهُوَ يَرِاقِبُ تَحَرُّكَاتِ سَعْدِ الَّذِي أَوْشَكَ
عَلَى المَغَادِرَةِ.. ثُمَّ قَالَ:

- لَقَدْ أَخْبَرْنَا الطَّبِيبَ بِحَقِيقَةِ تَوَاجُدِكَ هُنَا، أَتَمْنَى
لَكَ التَّوْفِيقَ وَالنَّجَاحَ فِي عَمَلِكَ الأَدَبِيِّ..

أَجَبْتُهُ وَأَنَا أَضَعُ كَفِّي عَلَى صَدْرِي:

- هَذَا لَطْفٌ مِنْكَ يَا سَيِّدِي، شَكَرًا عَلَى دَعَوَاتِكَ
الْجَمِيلَةِ..

فَابْتَسَمَ، وَجَلَسَ إِلَى جَوَارِي وَتَكَلَّمَ قَائِلًا:

- لقد اقترحنا في أول الأمر أن يتم تخصيص حجرة خاصة بك.. إلا أن احتياجك للاحتكاك بالمرضى جعلنا نختار لك مكانا في الحجرة التي يشغلها "سعد" رفقة ثلاثة نزلأ آخرين..

- هممم جيد!.. لم أكن أعلم أن هناك غرفا مشتركة، ظننتُ أن لكل مريض غرفته..

- لا.. وإنما يتم تخصيص الحجرات واختيار نزلأئها حسب احتياجات المرضى وطبيعة أمراضهم.. في حالة سعد ورفاقه الذين لا تتسم حالاتهم بالخطورة، تم جمعهم في حجرة واحدة.. إضافة لذلك، معهما نزيلان يعانون من التوحد ولا يحسن تركهما بمفردهما..

- آه.. هكذا إذن..

- أجل، هكذا تسير الأمور هنا.. فلتقم معي حتى أريك حجرتك..

رافقته إلى الحجرة التي بدت أكثر صخبا من سابقتها، وأشار إلى سرير قد أُسندت مقدمته إلى منتصف الجدار قائلا:

- ذاك سريرك..

ثم أشار إلى باب لا يبعد عنه كثيرا:

- وذلك الحمام.. به خزانة ستجد فيها كل ما قد يلزمك..

قبل أن يشير إلى زر عن يمين سريري:

- وهذا زر الطوارئ..

ثم شكرته وانصرف.. وجلستُ على السرير أعاين أرجاء
الحجرة التي جمعت عوالمنا شتى، فعن يميني جلس
سعد القرفصاء في سريره وهو يُقَلِّمُ أصابعه من اليمين
إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين كأنه يعزف
الهارمونيكا.. وقبالتة رقد العجوز في سرير وهو يرفع
الجريدة عن وجهه تارة ويقربها منه تارة، يولول أحياناً،
ويضحك شاتماً في أحيان أخرى.. وعن يساري وقف
كهل أسمر نأتى الجبهة كبير الأنف غليظ الشفتين،
يُشْطِّبُ بقلمه على صور أشخاص آسيويين قد أُلصقت
على الجدار، قبل أن يعمد لأحداها وينزعها عن الجدار
بعصبية وبمِرْقَها تمزيقاً.. فأشحت عن جَوْه المُتَوَتِّر،
ونظرتُ إلى الشاب العشريني الذي شغل السرير قبالتة،
متعجباً من كم الألعاب الوفير الذي أحاط به، ومن
الصبيانية التي طبعت تصرفاته.. في تلك اللحظة
خاطب سعد الذي لا يكف عن قضم أظافره العجوزَ
المستلقي متسائلاً:

- كيف يُعَقِّلُ أن تتزوج شابة جميلة عجوزاً
مجنوناً مثلك أحمر الشدقين تساقطت أسنانه
منذ زمن بعيد؟..

فأبعد العجوز الجريدة عن وجهه ثم نظر إلى سعد..
قبل أن يضيف هذا الأخير:

- يا عجوز إنك تشبه سيارات السبعينات المهترئة
هاهاهاها..

عندئذ شتمه العجوز:

- اللعنة عليك يا شبيه أينشتاين.. إن كنت تُعَيِّرني
بالشيخوخة والاهتراء فاعلم أن الأمر لا يتعلق
دائماً بجمال الإطار، بل بقوة المحرك..

أضحكني قول العجوز، وأخرجتُ القلم والمسودة
من جيبي رغبة في تدوينه.. إلا أن القلم أفلت من يدي،
وسقط على الأرض ليرتد عنها بعيداً تحت السرير..
فنزلتُ في طلبه وانحنيت لأتبيّن مكانه، قبل أن أكتشف
وجود باب صغير تحت السرير، ويشرّع الكهل الأسمر في
الصراخ فجأة:

- صينيون!.. صينيون!.. أريد المزيد من
الصينيين!..

ثم عمد إلى باب الحجرة، وشرع في ضربه وهو لا
يكف عن الصراخ، فيما استعدتُ قلّمي وعدتُ إلى السرير
مشدوها مما أراه.. استمر الوضع على تلك الحال إلى أن
فتح الممرض الباب، وسلّم الكهلَ رزمة من الصور؛ الشي
الذي أسعد هذا الأخير، وجعل سعداً يقفز من مكانه إلى
سريري وهو يخبرني عما يجري هامساً:

- هذا الأسمر المجنون يصرخ هكذا كل ليلة.. كلما
انتهى من تمزيق صور الصينيين؛ طالب بالمزيد
من الصور.. اللعنة عليه!..

سألته مستغرباً:

- ولم يفعل ذلك؟!..!

فاختبأ ورائي وأجاب وهو ينظر إلى الأسمر الذي
شرع في إلصاق الصور:

- لقد تسبب هذا الأسمر في مأساة قبل ثلاثين

سنة.. نسي شاحن هاتفه موصولاً بالكهرباء لمدة
طويلة؛ فانفجر الشاحن واحترق بيته بمن فيه..

- أووه ربّاه!.. وما علاقة الصينيين الذين يُمزّق
صورهم بما حدث له؟!..

- لقد كان الشاحن صنعا صينيا؛ ما جعله يكره
الصينيين وكل ما يرتبط بهم..

ثم سألته عن أمر الشاب ذي الألعاب:

- والآخر؟!.. ما قصته؟!..!

فابتعد سعد عن ظهري وسرّ للحديث عنه مبتهجاً:

- إنه "إلياس" أحب شخص إليّ في هذا المكان
الحقير.. تعال معي لأعرّفك عليه..

وجذبني من عضدي وهو يجرنني نحو الشاب قائلاً:

- كيف حالك يا إلياس؟!.. لقد جئتكَ بَعَمَّ جديد!..

فتهللت أسارير الشاب وقال بصوت طفولي رقيق:

- أهلاً عموّ الجديد..

ألقيتُ بنظرة على ألعابه المختلفة، ولاحظتُ وفرة
الدبة مقارنة بالسيارات والطائرات وقطع الليغو.. ثم
حييته قائلاً:

- مرحبا إلياس..

فمدّ لي دبدوبا صغيرا من ألعابه:

- تفضل عمّو.. إنه لك..

ابتسمتُ ضاحكا، وأخذته منه.. ثم جلستُ إلى
جواره قائلاً:

- شكرا إلياس..

- لا شكر على واجب عمّو..

- ما اسم الدبدوب؟..

- اسمه "حمّود الودود".. إنه لطيف يحب أكل

الفسق والعسل.. لكنه يكره الماء والنظافة،

ويحب العراك، خصوصا مع "مومي البغيض"..!

سألته في فضول:

- من "مومي البغيض"؟..

فأشار إلى دبّ عابس أجلسه على وسادته:

- ذاك هو..

- ولماذا تُلقبه بالبغيض؟..!

فعبس الشاب المتصابي وأجاب بنبرة حزينة:

- لأنه ضرب "أصيل الجميل" ومزّقه!..

حينها اقترب مني سعد وهمس لي ضاحكا:

- أنا من مزق دبه "أصيل الجميل" ثم ألصقتُ
التهمة بمومي البغيض.. لقد صدّق هذا الأخرق
كذبتى خخخخ..

لألومَه على فعلته موبخا:

- عار عليك يا سعد ما فعلته..

ويدافع عن نفسه مبررا:

- إنها لعبة مزعجة يا صاح.. لا تكفُّ عن الرنين
وترديد "عائقني عائقني أنا دبodob جميل"..

اللجنة عليها

- وما قصة هذا الشاب؟

- داء التصابي.. لقد توقف نموه العقلي والنفسي
عند سن السابعة..

قبل أن أتذكر أمر الباب الصغير، وأسأله قائلاً:

- هناك باب صغير أسفل سريرى!.. أ يوجد قبو

تحت الحجرة؟

فسكت لهنيهة وهو يقلب لعبة بين يديه.. ثم أجاب:

- إنه مجرد مخزن قديم.. لا تكثرث لأمره..

بعد فراغنا من وجبة العشاء بساعة ونصف، أُطْفِئَت
الأنوار واستلقى كل منا في سريره.. واستمر الأسمر في
لعن الصين والصينيين بصوت خفيض، بينما دندن
الشباب المتصابي لحنَ نشيد للأطفال، وسألني سعد عن
اسمي:

- لم نخبرنا عن اسمك أيها الضيف الجديد.. ما
اسمك؟..

- اسمي "ليث..".

قهقهه ضاحكا، وقال:

- هاهاهاها.. اسم حيوان، ألم تجد أمك اسما
غيره؟!..

عندئذ تكلم العجوز بصوت راعش متهدج النبرات:

- إنه اسم من أسماء الأسد الرائعة!.. تمنيتُ لو
كان اسمي "ليث..".

فردَّ سعد بنبرة متعالية:

- لم يطلب أحد رأيك يا عجوزَ الكلماتِ
المتقاطعة..

ليُلعَنهُ العجوز قائلا:

- اللعنة عليك يا رأس الفزاعة!.. البلهاء أمثالك لا
يستحقون أن يُكَلِّموا أبطلا مثلي..

ويسخرَ منه سعد ضاحكا:

- أبطال؟!.. ههههه.. نصبوا لك تمثالا من الخردة
فَصَدَّقْتَ أنك بطل!.. يا لغبائك يا عجوز!..

الشيء الذي أثار فضولي ودفعني لسؤال العجوز:

- أحقا نصبوا لك تمثالا؟!..

فأجاب العجوز والفخر يملأ نبراته:

- نعم لقد نصبوا لي تمثالا برونزيا رائعا في بلدة

"مونتيرو" الفرنسية!.. وذلك بعد إنقاضي البطولي

لعشرة أشخاص من حريق مهول..

ثم قاطعه سعد ساخرا:

- أتُصدِّق يا ليث أن هذا العجوز نفسه من تسبب

في إشعال الحريق.. لقد أحرق المبنى، قبل أن

يشعر بالذنب ويَهْبُّ لنجدة ساكنيه.. إنه وغد

مجنون، أما السكان الذين كَرَّموه بالتمثال فهم

أكثر جنونا منه..

في تلك اللحظة، فقد العجوز أعصابه وصاح بأقصى ما

يتيححه صوته الضعيف من صياح:

- كان بإمكانني أن أتركهم ليحترقوا داخل المبنى،

لكنني غامرتُ وأنقذتهم!.. لقد انتصر خيري على

شرِّي؛ فاستحققتُ بذلك التكريم!.. أما أنت

فمجرد مخبول معتوه لا يضر ولا ينفع كحليب

الأثان..

فخرس لسان سعد، وعم الصمت للحظات.. إلى أن

ضحك الشاب ضحكة طفل مشاغب مشاكس وهو يقول:

- هناك قنينة في البيت يا رفاق.. فلتستعدوا..

فلعنه العجوز وتأفف الأسمر وصاح سعد من الخوف،
بينما آثرت الصمت عاجزا عن الفهم والتأويل.. ثم أردف
المتصابي قائلا:

- السرير الأول.. كيف حالك يا جدي؟!..

فأجاب العجوز والفرع يظهر من كلامه المتقطع:

- أ.. أ.. أنا.. م.. منيع.. أنا منيع..

انتظرتُ من سعد تفسيراً لما يقع، لكنه لم يشرح ولم
يتكلم.. وتابع الشاب كلامه:

- السرير الثاني.. كيف حالك عمي؟..

فردّ سعد على الفور:

- أنا منيع.. أنا منيع..

ليكرّر الشاب السؤال للمرة الثالثة:

- السرير الثالث.. كيف حالك عمي الجديد؟..

كنت أعلم أنه يقصدني، وعلى الرغم من جهلي
بسياق السؤال، أجبتة قائلا:

- أنا بخير..

إلا أن سعدا حذرني قائلا:

- احم نفسك.. احم نفسك..

لكن تحذيره لي جاء متأخرا، حين سمعتُ صوت
القنينة وهي تتحطم على جبهتي، فومض البرق في
عيني، وطمّت أذني، وسالت الدماء من جبهتي وأنا
أصيح:

- تبا!.. تبا! .. اللعنة عليك!..

فهرع سعد وأثار الحجرة وضغط على زر الطوارئ وهو يقول:

- كان عليك أن تقول "أنا منيع.. أنا منيع" كيلا يرميك بالقنينة.. هكذا هي قوانين اللعبة ..

صرختُ في وجهه وأنا أشاهد بقع الدماء تتسع على غطاء السرير:

- اللعنة عليكم وعلى العابكم يا معشر المجانين..

ثم هبَّ الممرض تلبية لنداء الطوارئ، وفتح الباب؛
لِإفجاءٍ بكمية الدماء التي انسابت من جبهتي، ويخفَضُ
رأسه وهو يقطب حاجبيه متأسفا مما حصل لي..

زوال الأقنعة

غادرتُ المشفى وساعات الصباح الأولى.. تركته وعلى جبهتي ندبة قسمت حاجبي جزئين، وقصمت خاطري إلى أجزاء كثيرة؛ فرغم إلحاحي واستعطافي للطبيب المشرف، رفض هذا الأخير بقائي، وطلب مني المغادرة فور تطبيبه لجرحي، متحججا بتحذيره السابق من تورطي مع النزلاء، لاسيما وأن تواجدي اللامشروع سيُعرّضه للمساءلة إن تناهت الحادثة إلى أسماع نعمان.. وعلى الرغم من تبريره المقبول، شعرت بالظلم مما وقع لي، خصوصا وأن الحادث كان أمرا خارجا عن إرداتي، كما أن رفقة المجانين التي تقلصت إلى يوم وحيد لن تخدم روايتي بالشكل الذي أرتضيه.. لذلك، سرتُ طوال الطريق مهموما مطأطأ الرأس إلى أن هوى أحدهم بشيء على قفائي وسقطتُ على الأرض ممددا، دون أن أدري من هذا الذي ضربني، أو بأي شيء ضربني!..

استعدتُ وعيي في غرفة مظلمة إلا من مصباح خافت على مكتب قديم، كنت أجلس أمامه مقيد اليدين عاجزا عن فهم ما يجري، عاجزا عن فرك خاصرتي التي كانت تؤلمني بشكل غريب.. إلى أن دخل ثلاثة رجال مقنعين إلى الغرفة وجلس أحدهم إلى المكتب قبالي،

فيما وقف الآخران عن يمينه وشماله.. ثم حذق إلي مطولا قبل أن يتكلم بصوت صناعي فخم النبرات:

- ما اسمك؟.. ما تاريخ ميلادك؟!.. ما مهنتك؟..

أدركتُ أن خلف قناعه مُعَدَّلًا للصوت.. وقبل أن أَهْمَّ بإجابته استدرك قائلا:

- لا تحاول أن تكذب!.. يدك اليسرى موصولة بجهاز يكشف ذلك ..

تحسَّستُ يُسْرَائي خلف ظهري وتأكدتُ من وجود سوار على معصمي، ثم أجبته قائلا:

- اسمي "ليث بنعمران".. وُلدت في التاسع عشر من يناير سنة ألفين وثمانية عشر.. كنت أعمل تاجرا وأنا الآن في استراحة عن العمل..

فسكت للحظات ثم تكلم الذي عن يمينه بنفس النبرة الصناعية وهو يتحقق من سواره:

- إجاباته صحيحة..

ابتسمتُ مما يجري أمامي ومن جهلي بما وُزِّطَتْ به نفسي، مستغربا من الهدوء الذي تمتعتُ به حينها، ومن أعصابي التي كانت في غاية الانضباط، متسائلا عن السبب الذي منع الخوف من الاستحواذ علي، ومنع الرهبة التي يُشَكِّلُها الموقف من التأثير علي.. أثاره كان طبعي الساخر الذي يعشق أن يعتلي الأحداث؟ أم هو الألم الذي رأيته من الحداد جعل ما دونه تافها؟.. فجأة طرح الرجل سؤالا قطع علي تساؤلاتي:

- هل أنت يَساري؟!..

أجبتَه دون تردد:

- لا..

- وسطي؟..

- لا..

- يميني؟..

- لا..

تحقق رفيقه من الأجوبة مرة أخرى ثم قال:

- إنه صادق يا سيدي..

فغَيَّرَ جلسته واثكأ على الكرسي قائلاً:

- أي عمل لك في مشفى الأمراض النفسية والعقلية؟!..

عندئذ ضقتُ ذرعاً بأسئلته وسألته بدوري:

- ومن أنتم؟.. وأي عمل لكم معي؟..

فأجاب على الفور:

- نحن من يحقق معك الآن، ونحن من يطرح الأسئلة..

حدّثُ إلى وجوههم المقنّعة وإلى قاماتهم الرشيقة
علني أستنتج شيئاً، لكن ظلام الغرفة وسواد ثيابهم كان
مانعاً تتلاشى عنده كل الظنون.. لأتوقّف عن ذلك
وأجيّبه:

- قصدتُ المستشفى للاحتكاك بمرضاه..

- لماذا؟..
- لأنني أكتب رواية عن المتشردين والمجانين..
- فَهَمَّهم بصوت خافت وقال:
- ألهذا قصدت السوق وصادقت المتشردين؟!..
- فوجئتُ بسؤاله؛ واستنتجتُ احتمال مراقبتهم لي منذ وقت طويل، فأجبتُه وقد ازداد فضولي:
- نعم.. لقد تنكرت في صفة متشرد حتى أتمكن من صحبتهم وأدوّن وقائعي معهم..
- فسكت للحظة ليتحقق من رفيقه.. ولما تأكد من صدق الأجوبة؛ استأنف أسئلته:
- ولماذا اقتحمت منزل حاكم الولاية دون إذنه؟..
- عندئذ رجّحتُ كونهم من الاستخبارات، وأجبتهم:
- فعلتُ ذلك استجابة لاختبار أخيه صلاح الدين..
- كيف؟!..
- لقد طلب مني صلاح الدين أن أكل من القمامة أمام ضيوف نعمان وأطلب منهم الصدقات وأطلب منه يد ابنته أمامهم أملا في التعرض لأكبر قدر من الإحراج والإهانة تحقيقا لاختبار نفسي روحي يهدف إلى إهانة النفس وتقويض سلطتها عن الروح البشرية..
- أكد رفيقه صدق أجوبتي مرة أخرى، ثم قال لي بنبرة تحمل الكثير من التعجب والاستغراب:
- إنك صريح للغاية!.. ألا تشعر بالخوف؟!..

فأجبتة مبتسما:

- لقد طرحْتُ سؤالك الأخير على نفسي منذ لحظات.. صراحة إن كان هناك خائف بيننا فهو أنتم، فأنا كما ترون لا أضع قناعا أختبئ وراءه.. أما بالنسبة لصراحتي، فأنا شخص لا يجد متعة في الكذب..

لينطِقَ الذي عن يساره:

- لكنك كذبتَ على المتشردين وأوهمتهم بأنك مريض يعاني من الصرع ويجاهد لاسترداد ميراثه المسلوب..

ضحكتُ من قوله:

- لا بد وأنكم تعلمون كل شيء عني..

فأخرج يده من جيبه ثم نزع قناعه؛ لأتلقى صدمة من العيار الثقيل، حين اكتشفتُ أن المقنَّع لم يكن إلا "شاهين".. فواصلتُ التحديق إلى تعابير وجهه الماكرة وقد خرس لساني، قبل أن ينزع الذي يقف عن يمينه قناعه وأكتشفَ أنه الأسمر "حمزة".. فازدادت حيرتي مما أراه وشُلَّ دماغي عن التفكير وتكلم المقنَّع الجالس قائلا:

- لقد تفاجأت أليس كذلك؟..

فأجبتة وأنا أضحك من غبائي:

- نعم..!

ثم عقَّب شاهين:

- إجابته صحيحة يا سيدي..

فوقف المقنع الجالس في مكانه وسألني وهو يحرك أصابعه على سطح المكتب:

- هذا يدل على جهلك بحقيقة رفاقك إذن..

أمسكتُ عن الكلام والحيرة قد بلغت مداها، وأنصتُ إلى كلام المقنع بترقب شديد وأنا أتوقع منه أي شيء.. إلى أن تابع قائلاً:

- إننا نعلم كل شيء عنك منذ قدومك إلى السوق ولقد جاريناك في تمثيلك ونحن نعلم حسن نواياك، لكنّ تردّدك على صلاح الدين واقتحامك لمنزل حاكم الولاية واختيارك لمشفاه؛ قد أثار بعض الشكوك.. فظننا في بادئ الأمر أنك عميل لجهة معينة، إلا أن التحقيق وتحرياتنا الدقيقة أثبتت فعلاً أنك مجرد شخص يريد أن يكتب كتاباً..

- ولماذا عرضتم أجوبتي على كاشف الكذب إن كنتم تعلمون كل شيء؟..

فأفرج عن ضحكة خفيفة وأجاب:

- مجرد إجراء روتيني..

ثم أقبل إلي ووقف عند رأسي ممسكاً بكتفي:

- كنا سنرسل في طلبك في جميع الأحوال؛ فلقد علمنا من أرشيفك أنك قناص ماهر!..

رمقته بفضول وارتياح، ثم استأنف كلامه قائلاً:

- لهذا السبب كان الإيرلندي وحمزة وشاهين
يتقربون ويكسبون وذك سعيًا لإذابتك في
الجماعة وتمهيدا لضمك إليها..

تضاعف استغرابي وفضولي ولخصت عليه ما دار
في ذهني جملة واحدة:
- من أنتم؟!..

فأجاب بنبرة حازمة لا تخلو من القوة:
- نحن حراس نظام الولاية.. نحن الصخرة التي
تتحطم عليها آمال المخزيين!..

لأعقب على كلامه الملعن:
- عن أي مخزيين تتحدث؟!..

ويُجيبني وقد ازدادت نبراته حدة:
- أتحدث عن حلفاء الشيطان، عن أولئك الذين
باعوا أرواحهم وضمايرهم خدمة لأجندات أنانية
حقيرة، عن تلك الجرائم التي تتكاثر وتنشط
في الظلام وتكره النور والنقاء.. عن أولئك الذين
يمتهنون زراعة الفتن والحروب ويتمنّون إعادة
هذا البلد إلى الوراء.. الذين يريدون إرجاعنا إلى
سنوات الضعف حين كنا نكتفي بالدعاء.. أيام
كنا نموت أفواجا في قوارب الهجرة السرية، أيام
كانت نساؤنا تلدن على عتبات المستشفيات..
إنهم يحنون إلى أيام الظلم والجرائم
والسياسيين المخادعين، أيام كانت الأصوات

تباع بمئة او مئتين، أيام كانت الأحزاب تفوق
الأربعين.. أيام كان الابن يقتل أباه والأب يبيع
ابنته والطالب يقتل مُدْرّسه.. أيام كان الفاسد
يتنعم بأموال غيره والصالح لا يجد ما يأكله..
أيام كان الحصول على العاهرات أسهل من
الحصول على الكلاب، أيام كانت المخدرات أكثر
انتشارا من بقية الأعشاب.. لقد ناضلنا لعشرة
سنين حتى نجعل من المواطن أغلى شيء في
الولاية، وها هم الآن يحتالون لكي يعيدوه
أرخص شيء فيها..

أصغيتُ لكلامه الجاد متمعنا، غير أن ذلك لم يمنعي
من الضحك قائلا:

- لعلكم تعشقون نظرية المؤامرة كما يحلو لأي
تيار أن يتهم خصومه؟.. لعلك تبالغ!..

فالتفت إلي ونزع قناعه بلطف وهو يقول:

- بل أعني جيدا ما أقول.. أنا حاكم هذه الولاية
وأعلم جيدا ما يدور في الكواليس التي لا تراها..

وجمْتُ مصعوقا وأنا أرى نعمان التازي أمامي، وقبل
أن تنجح أفكاري في الترابط والاستنتاج أردفَ نعمان
بلهجته الحازمة:

- لقد حاولوا شرائي وحاولوا التحالف معي، ولما
أيقنوا استحالة ذلك؛ هددوني وقاموا بابتزازي..
الأغبياء ظنوا أن كشف أسراري أمام العامة

سيمنعني من المضي قُدُمًا في مخططي.. أتدري
ماذا فعلتُ؟!..

ثم ضحك بصوت خافت، وأضاف:

- لقد جمعتُ آلاف المواطنين وكشفتُ لهم أسراري
سرا سرا، فضيحة فضيحة.. فأدرك الأوغاد أن
الابتزاز لن ينفع معي، واشتروا زمما من الوسط
واليسار حتى يتوحدوا ضدنا، كما حاولوا مرارا
إقناع أخي للترشح للوسط لما يملكه من طيبة
تُسَهِّل عليهم استمالة أنصار من اليمين أيضا..
إنهم يعتقدون أن لينَ أخي وطيبته ستُيسِّر لهم
أمر الاحتيال والضغط عليه حتى يُمرَّروا
قراراتهم..

تذكَّرتُ ما قاله أبي عن ضرورة ترشح صلاح الدين
لحزب الوسط؛ فسألت نعمان في فضول:

- ومن هؤلاء وما مصلحتهم من نشر الفوضى؟..
أهم يساريون؟.. أم وسطيون؟!.. أم ماذا؟!..

فاتكأ على الكرسي مجددا، وأجابني:

- إنهم لا يتبعون أيا من التيارات المعروفة، لكن
لهم نفوذ عليها.. ولأنهم يملكون المال الذي
يشترى كل شيء، يَسْعَوْنَ لنشر الفوضى
والأمراض والحروب، وذلك حتى تتمكن
شركاتهم من بيع الأسلحة للمتحاربين، وبيع

الأدوية للمرضى والمعطوبين، وإعادة بناء المدن
التي تم تخريبها وهكذا دواليك..

ولمّا تذكرت سهرات الحشيش التي يقيمها الإيرلندي
بمعية الرفاق وبقية المتشردين سألته قائلاً:

- وما علاقتك بالإيرلندي ويوسف وشاهين؟!.. ألا
تعلم أنهم يحصلون على الحشيش والممنوعات
بكل سهولة؟! ألا تعلم أن هناك موزعين
للمخدرات وصلات قمار وأوكار دعارة سرية في
الولاية؟!.. ألسنت من منع كل ذلك وعاقب بشدة
عليه؟!.. كيف غفلت عن هذه التفاصيل؟!..

لُفّاجئني قائلاً:

- بلى أعلم.. أنا المسؤول عن صناعة الخمر
والمخدرات.. أنا المسؤول عن توفير المحرمات
والممنوعات لأصحابها.. هل تعلم أن قبو الغرفة
التي كنت بها في المشفى كان عبارة عن مصنع
للنبذ والكوكايين والدّي إم تي..

سكّث للحظة من شدة الدهشة، وانفجرت ضاحكا
في وجهه:

- وتعتزف بأنك منافق، متناقض.. تُصلحُ جانباً من
البيت، وتُخرب جانبه الآخر.. أين العدل والنزاهة
التي تتغنى بها في خطبك وندواتك..

فابتسم ضاحكا، وفسّر الأمر من منظوره قائلاً:

- أنت ترى نظامي متناقضا، لكنه في الحقيقة متكامل.. أنت ترى أنني أشجع الفساد بتوفيرى للممنوعات.. كلا.. أنا أخلق رقعة صغيرة أحتوي من خلالها الفساد وأتحكم بأبعاده حتى أتمكن من تقليصه والقضاء عليه شيئا فشيئا.. فقبل أن تنفليت الأمور من أيدينا إلى أيدي المفسدين، نخلق لهم عالما صغيرا نراه ونراقبه عن كثب، حتى إذا أحصيناهم ومحصناهم زلزلنا هذا العالم بمن فيه..

كان جوابه منطقيا ينم عن ذكاء كبير، لكنني استغربت إفشائه لكل شيء أمامي، الشيء الذي دفعني لأقول له:

- وكيف وثقت بي؟.. ألا تخاف أن أفشي ما أخبرتني به؟!..

فضحكوا جميعا ورد قائلا:

- لأنك لن تستطيع إفشاء ذلك..
 - كيف؟.. وما الذي يجعلك واثقا؟!..
 - لدي دليل يُدينك بست سنوات سجن، أم أنك نسيت إحراقك للمتجر عمدا واستفادتك من أموال التأمين باطلا؟!..

سكتُ مشدوها للحظات.. قبل أن أقول:

- أنتم إذن من اخترق حاسوب المتجر؟!..
 - أجل.. لقد بحثنا بخصوصك جيدا..

- مهلا مهلا .. لكنني مسحت الشرائط المعنية بنحو
لا يمكن استردادها..
- أجل .. لكننا التقطنا المشاهد من كاميرا المتجر
الذي يقابلك.
- يا لغبائي!.. ولنفترض أنني قبلتُ الدخول إلى
السجن؟.. كيف ستمنعني من الكلام؟!.. بماذا
ستهددني يا نعمان؟..

فأجاب شاهين:

- نعلم أنك رجل عاقل يحب وطنه يا ليث.. نعلم
أيضا أنك شخص قليل الكلام.. عدا عن ذلك
زرعنا قبلة ذكية في خاضرتك، قبلة تحلل
أصواتك وحركات عينيك وكتابات يديك، وإن
حدث وذكرَ أو كتبتَ شيئا عما سمعته خلال
هذه الجلسة؛ أو حاولت استئصالها؛ فستنفجر من
تلقاء نفسها وستتحول إلى أشلاء..

فدبّ الخوف في أوصالي ورفعتُ قميصي متفقدا
خاصرتي، لأفاجأ بجرح مقطب على طولها وتبدأ يداي
بالارتجاف من فورها.. حينها خفف نعمان من هلعي
قائلا:

- لا تخف.. إنها لن تنفجر إلا إذا أفشيت سرا من
أسرارنا، أو إذا قمتُ بتركيب الشفرة التي لا
يعلمها سواي..

فتساءلتُ وقد تناقلت لهجتي من الفزع:

- وما الحاجة إلى هذا كله؟!..

ليزّد نعمان قائلا:

- سوف تقوم بمهمة لأجل وطنك وذويه.. لقد اخترتك لتكون جزءا من هذه الخلية، ولك الخيار يا ليث.. أن تفعل خيرا لصالح شعبك أو أن تتحول إلى أشلاء، وإنني لا أراك غيبا بليدا حتى تختار الثاني، لا سيما وأن المجد قد طرق بابك..

- وما المهمة؟!..

- سوف تقتل أحد الأشرار..

- ماذا؟!..

- أنت مجبر على فعل ذلك يا ليث ولا خيار أمامك..

- أنت من يجبرني على فعل ذلك يا نعمان أنت المجرم هنا..

- كلا يا ليث.. أنا أمسك العصا من وسطها، أما الخيار فلَكَ، أن تقتل وغدا شريرا يسعى إلى الفتنة والخراب وتخلص الناس من شره، أو أن تقتل نفسك البريئة وتترك الوغد يبعث في الأرض فسادا..

- لمَ لا تُلقِ القبض عليه؟!.. ألسنت حاكم الولاية؟..

- بلى لكنه دبلوماسي ذو حصانة تتجاوز صلاحياتي، سيخبرك الإيرلندي بكل شيء لاحقا..

- فلتجلس معه إلى طاولة حوار أولاً، ثم ابحث معه حول سبل للسلام..

فضحك عالياً من كلامي وقال:

- لقد فعل السذج قبلي ذلك مراراً، واستنتجت أن طاولات الحوار ومفاوضات السلام مجرد مناورات يستغلها الأعداء لتمديد مُدِّ تخطيطهم.. اسمع يا ليث.. اقض على عدوك أولاً ثم غنِّ للسلام، وإلا فلا فرق بينك وبين الذباب ..

ثم قال يأمرُ شاهين:

- فلتُفقدْه وعيه!.. لقد حان وقت صلاة العصر؛ علينا الخروج من هنا..

فتقدم شاهين ولكمني بقوة على فكي..

عدتُ مع الرفاق إلى المقهى مجدداً، وجلسْتُ معهم على طاولة واحدة كالمعتاد، بيد أنني جالستهم وقد عرفتُ حقيقة من أمامي.. لم أكن مجبراً على التمثيل وإظهار السذاجة هذه المرة، لكنني كنتُ مجبراً على تفقد خاصرتي في كل مرة خوفاً مما قد ينفجر في جوفها.. لا أنكر أنني ندمت على اليوم الذي تعرفتُ فيه عليهم ، لكن، هيهات، لا منفعة للندم بعد فوات الأوان.. أما الرفاق فقد شرعوا في اللعب بالنرد وكأن شيئاً لم يقع؛ لأدرك لحظتها من الممثل البارِع ومن المغفل الحقيقي، وأدخل في

نوبات من الشرود لم ينتشلي منها إلا صوت شاهين
وهو يقول ضاحكا:

- لا تشغَلْ بالك بالقنبلة يا صاح ففي اللحظة التي
ستنفجر فيها لن تشعر ولو بوخزة صغيرة من
الألم، ستنتقل إلى العالم الآخر في لمح البصر..

وجمْتُ وقد تضاعف هلعي، ثم ضرب شاهين على
كتفي ضاحكا:

- إني أمزح يا ليث.. انس أمر القنبلة تماما، من
المستحيل أن تنفجر القنبلة إلا إذا قام نعمان
بذلك أو أخلتَ بشرط من الشروط..

ثم أضاف حمزة وقد اختفت ملامح البلادة ونبرتها
المعهودة من صوته:

- كلام شاهين صحيح يا ليث.. عدا عن ذلك،
غشاء القنبلة سيليكوني صحي لا يؤثر أبدا على
وظائف جسدك وأعضائك ولو ظلت القنبلة في
خاصرتك للأبد.. إنها صناعتي التي أُنقِها جيدا..

سألته منذهلا:

- أأنت من صنعها؟..

فأوما برأسه مؤكّدا:

- أجل.. إنها من صنع يدي.. نسيت أن أخبرك أنني
مهندس ميكانيكي وخبير متفجرات..

ازداد ذهولي وعقب الإيرلندي ضاحكا:

- ليث.. أتذكر اليساري الذي فجّر نفسه؟!..

- أجل.. وهل مضى عنه الكثير حتى أنساه؟!..
 - لم يفجر نفسه.. حمزة هو الذي فجره..
- كان وقع الخبر كالصاعقة على مسامعي، الشيء الذي فجّر فضولي:
- ربااه!.. ولماذا فعلتم ذلك؟!..

رد الإيرلندي وهو يلقي بالنرد:

- لقد أخبرنا عميل أن عناصر من اليسار ينوون دس عميل لهم داخل حزب اليمين.. حتى إذا أمضى هذا العميل مدة معينة داخل صفوف الحزب، قام وفجّر مقر حزب اليسار؛ فتلتصقّ التهمة بحزب اليمين ويتم اعتقال عناصره بأمر من المحكمة العليا وتفكيكه بعد ذلك.. لكننا باغثنا مخططهم وفجرنا عميلهم أمام مقر حزب اليمين..
- وكيف قمتم بذلك؟!..
- صنع حمزة حزاما ناسفا في غاية الدقة وأخفاه في جوف سترة، وتولى شاهين اختطاف العميل ونوّمه مغناطيسيا، ثم ألْبَسَهُ البدلة وأمره بالتوجه إلى مقر حزب اليمين.. قبل أن يتعقّبه حمزة ويضغط على زر التفجير قبل دخوله المقر.. فصدّق الأغبياء أنه الإرهاب كما اعتادوا أن يصدقوا..

ثم أفرجت عن الأسئلة التي أنهكت تفكيري:

- هممم.. وكيف تعرفتم على نعمان؟.. وما طبيعة تنظيمكم؟.. رباه لا أصدق ما يحدث!..

امتنع الإيرلندي عن الجواب في بادئ الأمر.. لكنه ابتسم أخيرا وتحدث:

- لقد صرّت واحدا منا وما من داع لنخفي عليك بعد الآن.. لقد اشتغلْتُ في ما مضى لصالح جماعة دولية مجرمة من الجماعات التي أخبرك بها نعمان.. كان مقرنا في بريطانيا وكنت وقتذاك مخرجا تلفزيونيا، انتدب ممثلين محترفين وأُصور شرائطا عن اختطافات لرهائن، ومشاهدا لمذابح وجلسات تعذيب، وأُحرصُ على أن يبدو الخاطفون والمُعذَّبون تماما كعناصر الجماعات الإسلامية المتطرفة.. أُلْمِعُ الأكاذيب وأُزيّف الحقائق طمعا في المال، إلى أن ارتدّت علي أفعالي وعاقبني الله على أعمالي، حين قُتِلت عائلتي كلها في غارة مدبرة شمال بيروت.. فقرّرت اعتزال جرائمي وجئتُ إلى هذا البلد، قبل أن أنخرط في حزب اليمين وأصادق نعمان، وأقرر بعد علمي بنبل هدفه أن أنتقم من تلك التنظيمات المجرمة تكفيرا لذنوبي السابقة.. بعد ذلك تعرفتُ على شاهين ويوسف وأسسنا هذه الخلية تحت إشراف نعمان أسوة بسبع خلايا أخرى تنتشر في أرجاء الولاية..

- وما هي مهام هذه الخلايا؟..

- لكل خلية مهام محددة ولا يعرف جميع أعضاء هذه الخلايا إلا نعمان الذي يحرص بنفسه على الإشراف على كل واحدة على حدى حتى لا يكثر عدد الأعضاء وينكشف الأمر..

- لهذا يعتمد نعمان التخلي عن الحراس ويسير في الأسواق ويجالس الناس في المقاهي وينام في الحدائق حتى تتسنى له مقابلة أفراد خلاياه بمنتهى الحرية بعيدا عن الشكوك!..

- تماما يا ليث..

- وما مهام خليتك هذه؟!..

فتبسم ضاحكا بعد جولة رابحة، وأجاب:

- نحصل على المخدرات والخمر من خلية سعد المجنون ثم..

قاطعته قائلا:

- سعد المجنون؟!.. يصنع المخدرات والخمور؟!..

- إنه خبير كيميائي يتظاهر بالجنون، بل الأربعة جميعهم خبراء في الكيمياء.. هل ظننت أن القنينة أصابتك بشكل عشوائي؟!.. كلا.. لقد تعمّد الشاب إصابتك حتى يجدوا عذرا مناسباً لإخراجك من المشفى..

أمسكتُ برأسي ساخرا من سذاجتي وتابع الإيرلندي

حديثه:

- نحصل على المخدرات والخمور عبر النساء اللواتي تتناوبن على تزييف حملهن، حيثُ ينقلن البضائع من المشفى في جوف بطونهن المزيفة، وحالما تصلني يتولى الطبيب البيطري شاهين..

قاطعته قائلا:

- أنت طبيب بيطري يا شاهين؟!..

فأجاب شاهين وهو يضع يده على صدره:

- أجل سيدي.. طبيب جراح ونحات وخبير في التنويم الإيحائي..

ثم استأنف الإيرلندي:

- يتولى شاهين وضع أكياس المخدرات في بطون القطط، أو في جوف منحوتاته ويعبئ الخمور في أوعية بلاستيكية متينة في بطون الحمير، قبل بيعها للزبناء المعتادين..

- وماذا عن صالات القمار وأوكار الدعارة؟..

- لا نعلم شيئا عن مكانها ولا علم لنا بعناصر الخلايا التي تُديرها.. وكما أخبرتك سابقا، نعمان هو الوحيد الذي يعرف أفراد الخلايا ويديرها كما يشاء..

- وشفيق؟..

- نستعمله في نقل الممنوعات أحيانا لكنه لا يعلم شيئا عن مصدرها ولا فكرة لديه عن انتماء خليتنا..

فزفرتُ وقد نال مني هم القنبلة:

- وما المهمة المنوطة بي؟!.. وما الذي يضمن أن نعمان لن يفجرني بعد انتهائي من مهمتي؟..

ضحك الجميع.. وأجاب شاهين:

- لا تخف يا صاح.. نعمان رجل صالح يفي بوعوده ولا يظلم أحدا..

وعقّب الإيرلندي:

- رؤوف السعيد..

استفسرته قائلاً:

- من يكون؟..

فأجاب وهو يُبعد طاولة النرد من أمامه:

- إنه اسم الرجل الذي ستقوم بتصفيته.. وغد شرير يملك شركة للتنقيب عن المعادن وأخرى للأدوية كما ينشط في تجارة الأسلحة والأعضاء البشرية.. لقد انضم مؤخراً لحزب اليسار ويسعى لربح صفقة التنقيب عن الثوريوم التي سينظمها مجلس الولاية بعد شهرين.. إنه مسؤول عن مقتل ما يقارب مليوني إنسان في الدول المتحاربة جنوب الصحراء، يُعرقّل مفاوضات السلام بين أطرافها ويحرضهم على القتال حتى تزدهر تجارته ومشاريعه على أنقاضهم.. وإن حدث واستولى على سلطة التنقيب عن الثوريوم فلن يتردد في استغلال هذه السلطة

لتطبيق أجندته الخبيثة واستعباد شريحة
عريضة من الناس هنا أيضا.. إنه جرثومة ينبغي
استئصالها..

فتأففتُ وقد أرهقني التوتر والضَّجر، واتَّكأتُ في
مقعدي شاردا ساهما مغموما من شر بليتي.. قبل أن
يختم الإيرلندي حديثه:

- فلتسترخِ يا ليث.. وإلى أن ينتهي شهر رمضان
المقبل، سنضع لك خطة محكمة للقضاء على
الحتالة رؤوف..

على الرغم من القنبلة التي أحملها في جوفي، أتممتُ روايتي أخيرا.. عنونتُ فصولها ونسّقتُ فقراتها، ونقحتُ كلماتها وعباراتها.. وعلى الرغم من قصر المدة التي أمضيتها برفقة المجانين المزيفين، استطعتُ كتابة ما يفوق عشرين صفحة عن أحداثها.. دون أن أشير إلى حقيقتهم أو أفصح ما يصنعونه داخل أسوار المشفى، ودون أن أُلَمِّح ولو بكلمة عن طبيعة خلية الإيرلندي وأعمالهم، ودون ذكر أي شيء مما ذكره لي نعمان والرفاق يوم اختطافي.. سردتُ الوقائع كما كنت أراها في قالب درامي اجتماعي، وأعدتُ رقعها على الحاسوب، قبل أن أنقلها لذاكرة "ديدي" وأطلب منه إرسالها لدور النشر ولكافة المسابقات الأدبية المفتوحة..

كان تأثير القنبلة علي أشبه بسوط يجلد ظهر حمار ليذكره بضرورة الإسراع، كلما هممتُ بالحركة أو السكون إلا وضربتُ ألف حساب من شدة الوجل.. المضحك في الأمر أنني كنت كحامل تتقي إجهاض جنينها وخسارته، بيد أن خسارتها ستكون طفيفة بالمقارنة مع أطرافي التي ستتوزع في الهواء في منظر فظيع بشع.. الخوف ذاته، كان يُبعدني عن الاحتكاك بالوادي خوفا عليهما؛ فكنْتُ لا أقترِب منهما ولا أجالسهما إلا نادرا.. هذا التأثير السلبي أرغمني أيضا على اعتماد سياسة الإلهاء والتغيير

أَمَلا في التخفيف -ولو بقليل- من التوتر الذي يسببه؛
فتخلَّصْتُ من ثيابي البالية بعد شهر من ارتدائها،
وقصصْتُ لحيتي بعد أن اعتدت إهمالها.. ارتديتُ أفخر
الثياب من دار "مانشيني"، وتَيَمَّنْتُ ساعة من أجود
ساعات "مارتيللي"، واقتنيْتُ سيارة فارهة من سيارات
"ماكبرايد"، كما تعمَّدْتُ أن أقوم على متنها بجولة داخل
أرجاء حيِّنا، وأبطأتُ من وثيرة السير حتى أحصل على
أقصى ما يمكنني من ارتسامات الجيران، وأخذتُ أشاهدُ
علامات التعجب والذهول والإعجاب على وجوههم..
صاروا يُلَوِّحون لي ويبتسمون في وجهي وهم ينادونني
باسمي، بعد أن كانوا ينفرون مني ويلقبونني بجني الحي
المعتوه.. ضحكْتُ كثيرا وأنا أتذكر حكمة صلاح الدين
حول الرياء وحب الظهور، وتوقفتُ عند الإشارة الحمراء
والعابرون يحدِّقون إلي.. في الماضي كنت أراهم
ويروني، ثم صرْتُ أراهم ولا يروني، والآن صاروا
يروني لكنني ما عدت أراهم.. فحين أدركتُ عبادتهم
للمظاهر ما عادت تهمني آراؤهم، وما عادت تثيرني
نظراتهم..

"يبدو أن المفاجآت تأبى أن تتوقف".. هذا ما قاله أبي وهو يطلب مني الإسراع وموافاته للصالة التي يشاهد فيها التلفاز.. كانت أُمِّي تقف إلى جانبه مُصَفِّرة مصعوقة وهي تشاهد النشرة العاجلة التي تعرض صوراً لجثث متفحمة.. الشيء الذي ألهب امتعاضي وفضولي:

- ماذا هناك يا أبي؟!.. ماذا وقع؟..

فردَّ بصوت تملأه الدهشة وهو لا يُبعد نظره عن التلفاز:

- لقد احترق "نعمان التازي" وزوجته وابنتاه داخل بيتهم!.. وهناك تضارب في الأنباء بين من يعتبرون الأمر حادثة، وبين من يرونه عملاً مدبراً!..

غصَّ حلقي وعجزتُ عن الكلام، وأخذتُ أتحسس مكان القنبلة من جسدي متخوفاً مرتجفاً، ودار سؤال واحد في ذهني لحظتها: "إن صح موت نعمان فما مصير هذه القنبلة؟! ومتى ستنفجر؟".. فما كان مني إلى غادرتُ البيت مسرعاً، وقفزتُ إلى سيارتي منطلقاً إلى المقهى..

كان الشارع مكتظاً.. رجالٌ قد وجموا من الصدمة وهم يتحلّقون حول الشاشات العملاقة ليواكبوا مستجدات الحادث الفظيع، نساء وعجائز من اليمين تصرخن وتولولن، وآخرون قد أمسكوا رؤوسهم لا يصدقون ما حدث.. أفراد من الشرطة الفديرالية قد

جاؤوا من العاصمة لتحقيق في الواقعة، واستنفاراً أمني
وحواجز على الطريق لم أر مثيلاً لكثرتها في حياتي..
الشيء الذي يدل على قيمة نعمان لدى الشعب، وعلى
وزنه الثقيل في هذا البلد..

وصلتُ إلى المقهى الذي كان مزدحماً بدوره، والذي
تحوّل إلى ساحة جدال وتحقيق بين مرتاديه، بعضهم
اعتبر الحادثة اغتيالاً، والبعض الآخر عزاها لتسرب
غازي، فيما فضل البقية موقف الحياد وانتظار نتائج
التحقيق.. لكن الغريب في الأمر أنني لم أجد الرفاق به،
فتضاعف انزعاجي وتوترتي، وفتشتُ عنهم في كل شبر
من السوق، وسألتُ عنهم كل من صادفته في طريقي،
لكن دون جدوى، وكأن الأرض انشقت وابتلعت جثتهم..
فعكفتُ على بحثي وتفتيشي وهَمَّيْ يَمْنَعُنِي مِنَ
الاستكانة أو الاستراحة، إلى أن لحق بي صاحب المقهى
أخيراً وناداني وهو يهرول إلي:

- ليث!.. ليث!.. لقد مررتُ عليّ في الحديقة؛
فناديتك لكنك لم تسمعني..

أجبتُه متلهفاً:

- أهلاً حسن.. ماذا؟!.. ماذا هناك؟!..

ردّ قائلاً:

- على رسلك يا رجل!.. رباه تبدو في قمة أناقتك

يا ليث!.. لا شك أنها أموال الميراث!..

فابتسمتُ رغماً عن قلقي.. وأردفَ حسن:

- لقد ترك الإيرلندي لك رسالة لم أفهم معناها!..
- فأمسكتُ بعضِدِه وقد استنفرتُ حواسي كلها:
- حقا؟!.. وما هي؟!..
- لقد قال أن الخلايا ستدخل في سُبات مؤقت لا يعرف مدته.. وأنه سيتصل بك في الوقت المناسب.. لم أفهم كلامه المُشَفَّر هذا!.. هلا شرحتَ لي؟..
- أدركتُ أن نشاطهم سيتعلق، كما أدركتُ أن معاناتي مع القنبلة ستطول.. الشيء الذي أثار غضبي بشدة:
- اللعنة على اليوم الذي عدتُ فيه إلى هذه الولاية!..
- ما الأمر يا ليث؟!..
- لا شيء.. لا شيء يا حسن..

قصدتُ صلاح الدين وقد ضاقت بي الدنيا بما
رحبت، كنت أتمنى أن أحكي له همي لعله يخفف عني،
إلا أن احتياطي من أن تلتقط مستشعرات القنبلة كلامي؛
حال بيني وبين رغبتني كما بين السماوات والأرض..
فدخلتُ مسجده وهو يجلس في محرابه شاردا هائم
العينين والدمع ينساب منهما حزنا وكمدا على رحيل
أخيه.. وألقيت عليه السلام بلطف وأنا أواسيه كما
تتطلب أصول التعزية:

- عظم الله أجركم يا سيدي.. لقد حزنْتُ جدا لما
حدث!.. هم السابقون ونحن اللاحقون..

ثم جلستُ إلى جواره، وقال بصوت قد أحاله الحزن
إلى حشجة واضحة:
- تقبل الله سعيكم..

ساد الصمت طويلا.. إلى أن تكلم قائلا بنبرة حزينة
منكسرة:

- لقد قتلوه يا ليث!.. قتلوا توأمي!.. قتلوا أناي
الآخر وحرموني منه!.. قتلوا زوجتي رفيقة
عمري.. قتلوا بنتي نور عيني وهما ما تزالان في
عمر الزهور.. لكنني سأنتقم منهم!.. قسما برب
العزة سأنتقم!..

فرفعت رأسي المطرق وأنا أنظر إليه مستغربا كلامه،
لا سيما وأن الانتقام لم يكن يوما من خصال صلاح
الدين.. لأقول له:

- عذرا سيدي.. كيف عرفت أنه قُتِلَ؟..
- فأجاب والدمع يتصبب بغزارة من مقلتيه اللتان
احمرتا من كثرة الحزن والبكاء:
- لقد كنتُ هناك لحظة الهجوم.. لقد كنتُ
المستهدف منه لا هو..

سألته متعجبا:

- من هجم عليه؟! .. ولماذا استهدفوك يا صلاح
الدين؟!.. إني لا أستوعب شيئا..
- فجاء ردُّه الصاعق:
- لست صلاح الدين.. أنا نعمان يا ليث..!
- فوقفْتُ لا إراديا من هول الصدمة:
- ماذا تقول؟!..!

ثم وقف بدوره وقد احتدت نظراته الصارمة وعيناه
تُشعشان من الغضب الذي أكد لي أنه نعمان لا صلاح
الدين:

- لقد دعوتُ صلاح الدين إلى عشاء عائلي ليلة
أمس بعد أن أعطيتُ البواب إجازة ليطمئن على
أمه المريضة.. فاجتمعنا حول المائدة نتبادل
أطراف الحديث نسترجع ذكريات الصبا والشباب،
وبعد أن فرغنا من ذلك؛ ذهبنا لأُخلد إلى النوم،
وفضل صلاح الدين أن يحيي ليله بالصلاة
وقراءة القرآن في البهو.. بعد ساعتين،
استيقظت زوجتي على آلام ضرسها، وأُجبرتُ

على النزول إلى القبو وجلب مُسَكِّن لألمها، بعد أن
تفقدت صيدلية البيت ولم أجده.. فنزلتُ
واستغرقتُ وقتاً في البحث عنه، ولَمَّا صعدتُ
إلى البيت فوجئت بكسر في نافذة من نوافذ
البهو.. استغربتُ ذلك خصوصاً وأني لم أسمع
صوت الكسر، فانطلقتُ إلى صلاح حتى أسأله،
وفوجئت به مرمياً على الأرض جاحظ العينين
وآثار الخنق في عنقه.. ففزعتُ لذلك وكِدْتُ أقع
على الأرض من الصدمة، وقبل أن أتمكن من
بلوغ غرفة البنات، انتشرت النيران في البيت
وانفجرت أنابيب غازه وقد قذفت بي شدة
الانفجار من النافذة نحو الحديقة.. في تلك
اللحظة سمعتُ صوت سيارة تبتعد عن البيت،
ولما هممتُ بتفقد شريط الكاميرات في مقصورة
البواب، انفجرت بدورها لثُمحى معها تفاصيلُ
الجريمة..

وعلى الرغم من الحزن الشديد الذي اجتاحني حينها،
لم أتمكن من كبح سُؤالي:

- وكيف عرفت أن الفاعلين هم رجال رؤوف..

ليجيبني ومعالم الحسرة قد تجلت على محياه:

- لقد علمتُ من مصادري أن الإيرلندي قد التقى
برؤوف عشية أمس، كما أكدت لي ذات المصادر
أن الإيرلندي قد غادر الولاية قبل الهجوم بساعة

فقط.. وهذا أقوى دليل على خيانتة لي وكشفه لرؤوف عن العملية التي ندبرها له؛ فكان من الطبيعي أن يتغذى عليّ قبل أن أتعشى به.. صحيح أننا رفضنا سياسة البيت الزجاجي ومنعنا تقنية الصقر التي ستملاً شوارعنا وبيوتنا بالكاميرات التي تُقلق راحة المواطنين، لكنني أنشأت بالمقابل شبكة تجسس سرية لا علم لدوائر الأمن ولا لرجال الاستخبارات بها.. الشيء الذي مكّني من تحديد هوية المهاجمين فردا فردا وتوثيق لقائهم برؤوف في غير ما مرة..

- لقد حُلت القضية إذا، وبات بإمكانك تطبيق الإعدام على رؤوف ورجاله بما تمتلكه من أدلة.. وماذا عن يوسف وشاهين؟..

- لا علاقة لهما بالأمر.. لقد فوجئنا كما فوجئت وتلقيا رسالة من الإيرلندي، فقررا الاختفاء عن الأنظار.. أما رؤوف ورجاله فلن أحولهما إلى القضاء ولن أستعمل أدلتي ضدهما..

- لماذا؟!..
- لأنني لا أستطيع ما دمت لا أضمنُ الإيرلندي الذي يعرف جزءا كبيرا من أسرار الولاية.. ماذا لو استعمله رؤوف ضدي؟!..

- وماذا ستفعل يا نعمان؟!..
- لقد مات نعمان في نظر الجميع وصار قصة من الماضي.. سأستغل موتي، وسأقمص شخصية

أخي صلاح الدين.. هكذا سأترشح لحزب الوسط
وأكسب حكم الولاية من جديد؛ بعد ذلك
سأخطط جيدا للثأر من رؤوف ومحو أشكاله من
الوجود..

فنظرتُ إليه وقد تألّقت العزيمة والقوة في عينيه،
وقلت له:

- إنكما متطابقان، لكنكما أبدا لا تتشابهان..!

وأجاب وقد هاج به الحنين لتوأمه المقتول:

- إن مَثَل صلاح الدين كَمَثَل المسيح، إن ضربته
على خده الأيمن؛ أعطاك خده الأيمن شفقة على
ضعفك وغضبك، إنه رجل شديد القوة لا تعرف
الضغائن إلى قلبه سييلا.. أما أنا فلستُ بقوته،
وإن صفعني أحد على خدي كسرت يده
واستأصلتُ ظلمه منه.. هكذا يقتضي العدل،
وهكذا تقتضي سياسة الناس..

فَذكرتُ أمر القنبلة التي أنساني إياها حزني على
صلاح الدين:

- وماذا عن القنبلة التي زرعتها في خاصرتي؟..
لقد حولت حياتي إلى جحيم..!

فأشاح عني وكأنه سمع خبرا تافها وقال:


- لا وجود للقنبلة يا ليث، لقد فتحنا جرحا في
خاصرتك وقمنا بتقطيعه.. إنها خدعة نفسية لا
غير..

عندئذ جثوت على ركبتى وتنفسْتُ الصعداء..
ثم أردفَ قائلا:

- لقد تعرضتُ للخيانة وفقدتُ كل الذين أحبهم ولا أملك شيئا لأخسره الآن.. لن أجبرك على شيء يا ليث، لكنك إن أفشيتَ شيئا مما تعلمه فتذكر أنني سأجد ألف طريقة للانتقام منك..
- لن أفشي شيئا يا نعمان.. لكن رؤوف سيفشي كل شيء حتما؛ سيما وأننا لا نعلم كمّ المعلومات التي أطلعه الإيرلندي عليها..
- لكنك الوحيد الذي يعلم أنني على قيد الحياة يا ليث.. حتى وإن اكتشف العالم أسراري فأنا ميت في اعتبارهم..
- أنا الوحيد الذي يعلم كونك على قيدة الحياة؟!.. وماذا عن المصادر التي أطلعتك بهوية المجرمين وتفاصيلهم أنسييت أمرها؟..
- كلا.. إن هاته المصادر والجواسيس الذين استعين بهم ليسوا بشرا، إنهم صناديق القمامة الذكية يا ليث.. للأسف صارت صناديق القمامة أوفى من البشر!.. لكن.. فكر مليا في قضية الثأر، وإن شئت الانتقام لأخي ومعلمك صلاح الدين فمرحبا.. في كل الأحوال احتط من رؤوف ورجاله فلاشك أن الإيرلندي قد أخبره بأنك من كلفناه باغتياله..

عاد الهم ليستعمر تفكيري بعد جملته الأخيرة!..
فألقيت بجسدي متكئا على السارية، متعجبا من حياتي
وسيرورة أحداثها، لقد اعتدتُ عند مواجهة المشكلات أن
أفتعل مشاكل أكبر منها هروبا من همّها.. شردتُ لوقت
طويل أشعر بالضياع، ففي دنيانا المجنونة المتقلبة بعد
كل مصيبة فرح وبعد كل فرح مصيبة.. لذلك ضحكت
من نفسي رغما عما يجتاحني، وقررتُ ساعتها أن أكون
أكثر جنونا من الدنيا وأن أبحث عن المشاكل بنفسي
حتى لا تُفاجئني بمراريتها.. يقولون إن ظروف الحياة
قاسية لا تقبل التفاوض، أجل يا عزيزي إنها قاسية لا
تقبل التفاوض، لكن ذلك لا يمنعك من التشجع واغتصاب
سعادتك منها.. ذلك أن الحل الوحيد لمواجهة قسوتها،
أن تكون أقسى منها يا صديقي.. تذكر أنك في حرب
معها وأن الخوف منها لن يحفظك من قسوتها، ولن
ينقذك من الموت المحتوم.. فقط تشجع!..

هكذا خاطبتُ نفسي، قبل أن أقوم عن السارية
وأوجه إلى مكان الضوء وقد أعلنتُ الحرب على
نفسي وعلى الدنيا عملا بنصيحة صلاح الدين ..



ذات ليلة ودون سابق إنذار خطرت لي فكرة! .. فكرة
مجنونة كمعظم الأفكار التي تعتريني من حين لآخر، أن
أكتب رواية عن عالم المجانين والمشردين! .. أن أقمص
الدور وأعيش حياة الجنون والتشرد حقيقة، لا أن أكتب
عنهم من وراء حجاب مسئلتهما من خيالي وفي يدي
كوب من القهوة كما يفعل أغلب الكتاب.. ولكي أحقق
ذلك؛ كان علي - أولاً - أن أتخلص من شيئين رئيسين
قد يفسدان علي مخططي.. وأقصد بذلك، زوجتي
التي ما عدت أطيقها، وتجارتي التي لطالما كرهتها..